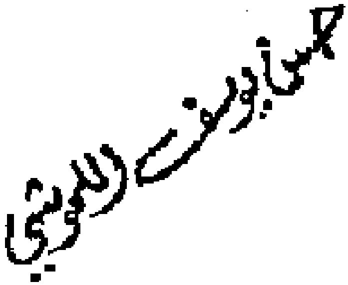
إنهم مرّوا بمدينتي

مجموعة قصصية قصيرة



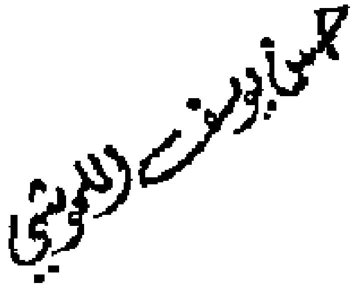
الشاذلي خالد المهرك

مجلس الثقافة العام



إنهم مرُّوا بمدينتي

مجموعة قصصية قصيرة



إصدارات

مجلس الثقافة العام

الإشراف العام

أ . د . سليمان صالح الغويل

لجنة الإعداد والإشراف

ناصـــــر الدعيـــــسي

علـــــي الفـــــلاح

هلـــــيل البـــــيجو

جابـــــر نـــــور ســـــلطان

محمـــد عـــبدالله الترهونـــي

ســـــالم أحمـــد الأوجلـــي

إنهم مرُّوا بمدينتي

مجموعة قصصية قصيرة

الشاذلي خالد المهرك

الناشر
مجلس الثقافة العام

اسم الكتاب	إنهم مروا بمدينتي (مجموعة قصصية قصيرة)
اسم المؤلف	الشاذلي خالد المهرك
سنة النشر	2008 م
رقم الإيداع	318 / 2008 م (دار الكتب الوطنية)
الترقيم الدولي	3 - 835 - 38 - 9959 - 978
تصميم الغلاف	علي العباني
لوحة الغلاف	مباركة المغربي
التنفيذ الفني	دار قباء الحديثة - القاهرة

الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى

إصدارات

مجلس الثقافة العام

المقر الرئيس - مجمع المؤتمرات - سرت

هاتف 002185468622 - بريد مصور 002185473161

فرع طرابلس - عمارة الواحات - شارع عمر المختار

هاتف 00218214449894 - بريد مصور 00218213335388

ص ب 2764 طرابلس

فرع بنغازي - الفويهات الغربية - الطريق الدائري الثاني

هاتف 00218612241577 - 00218612241578

بريد مصور 00218612241576 - ص ب 9351 بنغازي

بريد إلكتروني - LCC2_2005@Yahoo.ca

الإهداء

إلى مدينتي

يا مدينتي الغارقة في الصمت حتى أذنيها.. هل كان صمت حزن أم صمت وقار؟ أغلب الظن أنه الأخير.. لا تحزني لك العتبى حتى ترضين.. يا مدينتي الجالسة على عرش قلوبنا عبر الأجيال، مابك لا تحكي عن مجدك الغابر، وتراثك الزاخر، وزادك العامر.. أعرف أن أبناءك لاذوا بالصمت والسكون، وقد كانوا صناديد وطنهم، وأسود عرينهم.. لقد أخبرنا التاريخ عن بطولاتك، وسكت عنك الحفيد!! ترى هل أصابك شيء من غضب..لقد أخبرنا غادروك عن مآسيهم من صولاتك وجولاتك، وقد وصفوك برأس الأفعى، ها قد اعترف اللعين بمقارعتك لجحافلهم.. لقد كنت الصخرة التي حطمت بوارجهم، واللغم الذي نسف نواقلهم، والسيف الذي قطع رؤوسهم المهووسة بسطوة التملك.. جاءوك ليغسلوا أقدامهم، فغاصت في

أسباخك ورمالك أرجلهم، وتدحرجت رؤوسهم من على أكتافها، وتـــاه جـــندهم في دروبك.. وأوشى الشجر والحجر بمخبئهم، فكانـــت معارك قصر حمد، ورأس الطوبة، وجرف المقاصبة، والـــرميلة، والـــسبت.. عشت ظلم الرومان، ثم حضنت الإسلام، ورضـــعه أبـــناؤك صـــافياً، فصاروا علما شامخ البنيان، وبحقه وواجبهم، صمدوا في وجه الطليان حفدة الطغاة الرومان..

قلـــت ربما أصابك شيء من غضب، ونحن نقدّر ذلك ، كان علينا أن نرصّع سطور تاريخك بمناقبه، ونفتش عن كنوز أرضـــك الدفيـــنة بـــين طـــياتك.. لقـــد كـــتب عنك الرحالة والمستكشفون، لقد أصابتهم الدهشة وعقد ألسنتهم جمال طبيعتك، وعطـــاء خيـــراتك ، وبهاء أبنائك وكرمهم وشهامتهم، لقد كنت للـــضيف خادمة وللمحتل قاطعة..تزوّد منك ابن السبيل والحاج بالعون والزاد.. استراحت القوافل وأناخت إبلها، وأنزلت ركبها فـــي سهولك مطمئنة هادئة.. نعرف أن بعضا من أهلك هاجر بجسده من ظلم الغريب، وبقي حنينه لثراك دفين.

لقـــد كـــان طيلة هجرته في شعور بغربة البعاد ووجع يومـــيات العـــيش الحـــزين، يحكى لأحفاده مر الفراق وعذاب السنين.. لا لشيء إلا قوله: لا لغاصب الحق التليد..

يـــا مدينتي.. البحر يحضنك بذراعيه من الشرق والشمال وكأنــــه في خوف عليك، وكثبانك الرملية تحيط بساحلك حبورا بــك وتعبيـــرا عـــن شموخك المتواصل في سرائه وضرائه.. والصحراء في امتدادها الجنوبي تلمع رمالها الذهبية في عيون أبـــنائك، وتمنحهم الأمل بعمق امتداد أفقها المترامي.. لقد كان نخـــيلك سامقاً، وزيتك شافياً، وعشبك فائحاً، وأوديتك خصبة، وزروعـــك طيـــبة وطيورك وادعة، وأنعامك آلفة .. أنس بك العلمــــاء فاتخذوك مقرا، فصرت منارة.. واطمأن إليك الخائف فاتخـــذك مـــلاذا، واستبـــشر الجائع بطلع نخيلك فهدأت نفسه، واســـتراح المـــتعب مـــن ســـفره في ظلالك الوارفة، فسكنت جـــوارحه.. كابدت تقلّب صروف الدهر في صبر، فكنت المدد لأهلـــك فـــي جلدهم. .. شتاؤك بأمطاره غيث، وصيفك بحرّه طهارة، وربيعك بفوحه أريج، وخريفك ببوادره تمور وحرث..

عليـــنا أن نبحث عن مآثرك، وننقب عن دفائنك، وندعو أبـــناءك وأحباءك إلى المشاركة والتواصل لنُكمل حلقات درسك وعقد لؤلؤك، ونعرف ما جهلناه بقصورنا، وما غاب عنا بعقوقنا لفــضلك.. رمـــيت بفلـــذات أكبادك للدفاع عنك وعن أخواتك، فكانـــت بطـــولات الهانــــي وأبى مليانة والمرقب والقرضابية

والمـــشّرك والسدادة .. ألقيت بفلذاتك في ربيع الشهادة.. هانوا علـــيك مـــن أجل دينك ووطنك، فكان لك ولهن المجد المسطر بأحرف من نور ونار .. نغوص في صفحات تاريخك الممتد عبر العـــصور لنسبر أغوار جذورك التي منها فروعنا، وعروقك التي مـــنها أغـــصاننا، وترابك الذي منه غذاؤنا.. حبنا لايكل أو يمل، وعطاؤنا لن يبخل أو يمن، فقد كان فضلك سابقاً، وخيرك وافرا.. لقد طال فخرك عنان السماء، وضرب طودك أعماق الأرض..

من له بمثل مدينتي... لو شئت جوري عليّ بما تشاءين، فلـــن أرضـــى بغيرك في أي حين.. إن جورك صقل لمعدني ، ورضـــاك مفخرتـــي وعزتـــي، بك ومن خلالك أحببت وطني وأمتـــي، وأشرفت علي مستقبل حضارتي من زاد تالدي، رغم الغبار الذي علا هامتي من ظلم غريم وحاقد ، يتربص بك من وراء البحار، ليعيد الكرّة بليل التآمر أو بعسكر النهار..

مع تحياتي وتقديري.

مقدمة

مجمـــوعة قصصية قصيرة تتحدث عن أشخاص ووقائع مرت بمدينتي، وتحكي جزءا من تاريخ بعض الأشخاص سوى الـــذين ينتمون لها أو قدموا إليها أو أقاموا بها كثيرا أو قليلا.. وتعبـــر في ثناياها عن مواقف هؤلاء ودوافعهم وظروفهم التي ربمـــا أملت عليهم تلك المواقف.. ومن خلال الوقائع نحاول أن نفـــسر ونحلـــل تلك السير، وخلفية ذلك في نفسيات شخوصها وثقافـــتها، ومـــدى تأثير العادات والتقاليد في سلوكياتها وأنماط معاملاتهـــا.. قلـــت: نحاول أن نفسر ونحلل، ولكننا لا نستطيع أن نجـــزم بوصـــولنا إلى الغاية أو الهدف.. فعالم الإنسان معقد بحجم غور بواطنه.. قد نستطيع أن نستنتج ردات فعل كل الكائنات الحية الأخـــرى وبقدر من الصواب والدقة، أما مع الإنسان فنصيبنا من ذلـــك أقـــل بكثيـــر.. هذه الحكايات تسرد خليطا من أنماط التفكير والفعل الصائبين والخائبين.. فكل بني آدم خطّأ، وإن تفاوتت نسبة الأخطـــاء بيـــنهم.. فترى البعض في قمة الهرم، وآخر في أسفل الدرك، كشأن البشرية بتنوّع طبائعها في كل مكان وزمان.

هذه الحكايات تروي بعضا من تجارب الإنسان ونتائجها علـــيه إيجابـــا أو ســـلبا.. لعل ذلك يزيد من مخزون ذاكرتنا، ويمنحـــنا قـــدرا مـــن العظات والعبر، التي لا ريب في نفعها للأجيال المتعاقبة.. والتاريخ في تقديري لا يعيد نفسه إلا مع من تجاهل نواميسه، والحياة لا تنكس بمعطياتها مع من اتبع سننها، وعرف قوانينها.. وما قص علينا القرآن الكريم عن الغابرين إلا لنفهم ونعي تلك السنن والنواميس، فالتجارب كنز لا يستفيد منه إلا المـــتعظ، ولا يهلـــك بتكـــرار مآسيه إلا المكابر والجاهل.. والمـــرور في عنواننا قد يعني زمنا من عمر الشخص أو كامل ســـنوات عمره، فما الدنيا بالنسبة إلينا إلا دار ممر.. وما قيمة الـــسنوات التي نعيشها على ظهرها إلا بقدر العطاء والبذل من أجـــل الآخـــرة دار المستقر، وفي الختام أرجو أن ننال رضاكم الذي به نستطيع الاستمرار والتواصل.

نسأل الله التوفيق. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الشاذلي خالد المهرك

Shadli_kh@yahoo.com

مصراته في 11-7 -2006

الإحســان

تطاولت همومه مع الأيام، وأدخلته في حوارات بين عقله ونفــسه، ما السبيل إلى الخلاص ؟ يسرح بخياله وسط جلسائه، لاينتبــه إليهم إلاّ بغمزه من هذا أو لمزه من ذاك . .. يتظاهر بالانــدماج، لكــنه سرعان ما يعود إلى عالمه، يسبح في بحر تصوراته بعيداً . .. بعيدا، ينفضّ المجلس، يبقى جالسا.. ذهابهم أو بقــاؤهم، لا يعنــى له شيئا .. حاول بعضهم أن يقتحم عليه خلوته الفكرية، لكنه يناور ويدارى ما وسعته المناورة والمداراة .. فــي غيبــته يتكهن البعض: لعله يشكو مرضا، ولا يريد أن يــبوح بــه، ويدعّــي الآخــر: إنه يعاني من مصاعب مادية. ويعترض الثالث: لا . لابد أنه يواجه مصاعب في العمل.. كل منهم متمسك بوجهة نظره، وكل منهم يدحض شبهة صاحبه .. إذ لا تبدو عليه أية علامات لمرض، وملابسه تنبئ عن شخص ميسور، ووضعه في العمل مريح، ويتقلّد منصبا مرموقا .. إذن ما هي المشكلة ؟ المشكلة عند البسطاء عادة في مرض أو فقر

أو فـــي خلافات مع هذا أو ذاك .. ولكن المشكلة عند أصحاب الـــنفوس الطمـــوحة أكبر وأعم. صحيح قد ينغص على حياتهم بعـــض مـــن ذلك، وصحيح أنهم من هذا الجمع وينطبق عليهم المثل العربي الشهير **(أنفك فيك وإن كان اجدع)** ولكن الآخرين لا يعيـــرون اهتماما بأمرهم، فويل لعالم أمر من جاهله، فالناس قـــد يـــرهفون بمـــا لا يعرفون .. كان هو وأمثاله متعجلين لما يطمحـــون، أما البقية تنتظر، وقد نافست أيوب عليه السلام في صبره.. إن صبر أيوب على أمر لا يملكه، إنه كان بقضاء الله وقـــدره.. أما صبرهم فلا يعبر إلا عن تقاعسهم.. هكذا يراهم صاحبنا: وقد تمثّل بقول جرير:

إنـــي لأرجـــو مـــنك شـــيئاً ❖ والـــنفس مـــولعة بحـــب العاجـــل

يـــريدونه أن ينشد، ولكن الإنشاد لا يتأتى إلا بالمسرة، علـــى رأي الـــشنفري .. إنـــه يراهم نادمين يوما ما، كندم الكسعي على أقواسه، لقد فرطوا في زمنهم، وبقوا في محطة انـــتظارهم، والعـــالم من حولهم يحلق في السماء ويرنو إلى فـــضاء الإبـــداع والـــتفوّق، وســـيترك لهم الأرض لينعموا بخشخاشها.. يرى مجتمعه يكثر الحز ويُخطئ المفصل.. وقد قـــام بـــه الـــشر ولم يقعد، وسكن إلى الدعة وقعدت به عن

النهوض.. يراه مكبَّلا بعادات بالية ومفاهيم خاطئة.. إنهم يرون حسنا ما ليس بالحسن.. ويمضون وقتهم في القيل والقال، ويضيعونه في مناسباتهم أياما وشهورا، يسرفون في توافه الأمور ويعزفون عن عظائمها، تفاديا لجديتها، وثقل مهامها.. يتمثّلون بعبارات ما أنزل الله بها من سلطان، ويتناقلونها وكأنها حكم ونفائس من تراثهم!

يقولون: اتق شر من أحسنت إليه .. ولا يعلمون أنهم بذلك قد نسفوا كل فضيلة .. استهانوا بأنفسهم وقد كرمهم الله.. احتقروا شأنهم، وقد عظّمه الله بحمل رسالته.. وجعل في ركوعهم وسجودهم مخرجا من ذلهم وهوانهم، وزيادة في علمهم ورزقهم، وإيقاظا من سباتهم.. لقد شقي بعقله، وأشقى به جسده..

في أحداث يونيو 1967، كان يتابع بالمذياع أخبار بني عمومته وملته، كان يحمله على كفه، لصيقا بأذنه، فلم يعد يسمع شيئاً غير الموسيقى العسكرية والأناشيد الحماسية والبلاغات عن تساقط الطائرات بالعشرات.. كاد يطير فرحا بنشوة الانتصار، وأنشد ما وسعه الإنشاد.. لقد فقد هدوءه المعهود.. ثم صدمه الحدث، وهول المصاب.. كذبوا عليه، وتحطمت آماله على

صخرة الواقع .. لا يريد أن يصدّق .. لو صدق لما عاد لأفقه مــدى، ولمــستقبله بهاء، بل لم يعد لعقله حق البقاء، ذاك العقل الذي طالما خدعه بالأماني، وملأ رحبه بالطموح، ووعده بحسن الرجاء، وبنا لبناته على ركائز المجد التالد والحق الطارف.. ثم فجــأة.. يجده ، أمامه خواء وتيه في البيداء، لا حب ولا وفاء، وفي عتمة بلا أمل في ضياء..

اضــطربت أحواله، واختلطت عليه وقائع الأحداث بأحلام المنام الموغلة به في دهاليز الوهم، فلم يعد يميّز بين الواقع والحلم، لقــد تــضافرا على قهره .. تسلىّ الناس بما يعرف ويدعّى، وبدأ يعبــر عــن آماله المغتصبة بصورة تثير السخرية عند الأوغاد، والــشفقة عــند العقلاء .. اتخذ من خشبة مربوط بطرفيها حبل، أنكــبها على كتفه، يجوب بها شوارع الحي معبرا عن أمان، كانت مخــزونة فــي عمق ذاكرته، ويعلن على الملأ عن تأهبه لتحرير فلــسطين، وأنه في انتظار جواز سفره الذي طالت غيبته.. يتناوله البعض بسفاهتهم فيثيرون ما بقى في عقله كامنا، يسألونه:

- أتريد أن تحرر فلسطين وتنتظر جوازا ؟!

فيجيب:

- ينبغــي أن ألتــزم بالقانــون ولا أخرقه.. الفوضى..

الفوضـــى، هـــي ســبب نكباتنا.. يستغربون جمعه بين الجنون والعقل، وقد جهلوا أن للعقل رصيدا في بواطن نفسه، لايستطيع الفكاك عنه، وإن غيّب الإحباط طرفا منه.

فـــي أيـــام صفائه كان رجلاً جاداً، محبا للخير، يُحسن للآخـــرين دون أن يلـــتمس مصلحة ذاتية أو نفاقاً. وقد تمثّل له إحسانه في شخص فاضل كان قد أسدى إليه خدمة إنسانية عجز الآخرون عن تقديمها، وجده يذرع الشوارع بخطوات الانضباط العـــسكري، رصـــده ، وتابع حالته عن بُعد.. أوعزى إلى أحد أصـــدقائه المختصين بالأمراض النفسية أن يعتني به.. أُخضع للمعالجـــة وأثمرت النتائج عافية وسلامة من كابوسه.. دون أن يُمـــس ضـــميره، أو ينسى أن للأمة حقا على أبنائها وإن طال التـــرقب والانـــتظار، وأرهـــق طالـــبه طغيان الباطل وسنون المماطلة والتضليل.

الثرثار المتصابي

نحيل الجسم، جاحظ العينين، أبيض البشرة، أشعث الشعر، يجلس القرفصاء متكئا على ذلك الحائط المتداعي في أحد الأحياء الشعبية القديمة، يبلغ من العمر ما يناهز الثمانين، يلوّك التبغ الرديء بلحمة أسنانه، ويبصق بين الحين والآخر ما يتركه ذاك التبغ اللعين في فمه المجلّل بالشيب وقد تخضّب شعر شنبه وأنامله بالاصفرار.. ملابسه رثة، اكتسبت لون القذارة التي يحمل جسده أيضا قدرا هائلا منها، تشعر وكأنه يتلذذ بها !! رباط سرواله يتدلى بين ركبتيه، وأسفله يدوسه بقدميه، وأكمام قميصه مفتوحة وياقته ملتوية حول رقبته فلا تميّز ظاهرها عن باطنها.. يتظاهر بالانهماك في رعاية شياهه، ويدّعى أنها سبب ما به من أوساخ!! أُميّ، غير أنه يدّعي الخبرة في التاريخ والحياة، وأشياء أخرى لا تذكر إلا سراً وتصابياً.. يسرد التاريخ كما عنى له حينها، وكيفما اتفق.. له مجموعة حكايات يكررها على جلسائه في كل حين، وكأنه لم يسردها للمرة الألف، وبروايات ملتبسة

ومتناقضة وغير قابلة للتصديق أحيانا.. يتبادل الجلساء النظرات، فهـــم بين مشفق، وحانق، وساخر، لا يطيق سماع الآخرين، بل يـــرغب دائما أن يكون المتحدث.. تخونه الذاكرة فيعيد ما التبس علـــيها بفعل تقادمها أو بفعل خرفها ووهنها. ولا شيء جديد.. يـــرد علـــى المـــارة بـــالكلام المقابل لتعليقاتهم المستفزة بأقذع الأوصاف وأقبح الكلمات، وكأنه طفل في الخامسة من عمره لا يعـــي ما يقول.. فمن المارة من يرثي لحاله، ومنهم من يسخر أو يحنق وهو لا يبالي بهذا أو بذاك.

إنـــه أحـــد مواطنـــي هـــذه البلدة يجالس كل من هبَّ ودبَّ.. الكـــل يعـــرفه، ويحـــدثهم عن مغامراته في صباه، مفتخرا بما شرب من أنواع الخمور والمسكرات !! ويتغزّل بما فعلته في أوصاله وعقله، وبما حدث له مع عباد الله من مـــشاجرات كانـــت في معظمها بدوافعه الشيطانية.. وهذا الـــشق الثانـــي من حديثه المعتاد، لا يذكر خالقه إلا عندما يـــنعون إلـــيه أحد أصدقائه أو معارفه القدامى، محاولا أن يـــتعظ، ولكـــنه ســـرعان مـــا ينسى كل ذلك ثم يسرد على الحاضـــرين نوادره ومغامراته مع من نعوه إليه، ولا ينسى جـــرعة الشتم والسب التي يكيلها لمن يعلّق أو يتفوّه بكلمة

تذكيـــر بالموقـــف، معلنا أنه مازال في قوة شبابه !! وأنه يستطيع أن يفعل الكثير والكثير !!

ويسوق في ثنايا حديثه اتهامه لشباب اليوم بالخوف والجبن من الأعمال التي ربما يستحي منها حتى الشيطان نفسه !!

لا يثـــبت لــــه صديق أو خصم، يتقلّب في مدح معارفه وذمهم حسب حالته النفسية ومزاجه المضطرب.. فهذا الآن شهم عاقل لا مثيل له، وغدا خسيس ولا مثيل له أيضا !!، هذه غالبا سمات حياته..

وفي طور آخر تراه يبكي كالطفل، يُخيّل إليك عندئذ أنه رجع إلى رشده أو قُل رجع رشده إليه، وأنه قد تاب عن كل ما هو مشين، فترجع بعد حين لتجده قد نسى أو تناسى ندمه، وكأن هذا الأمر ضرب من ضروب الهزل ليس إلا..

هـــل أخـــذ طباع شياهه وقاسمها مختلف ظروفها؟ أم أصر علـــى أن يمـــنح عقلــــه إجازة طويلة بعدد سنوات عمره؟ أم فشلت السنون بتجاربها المريرة في إصلاح حاله؟ ربما التقت جميعا عليه.

انـــتقل إلى الدار الآخرة يجر أثقال معاصيه وسيرى كل مثقال ذرة مما فعل وقال . . .

الزاهـد

مجريات الأحداث تعلّمنا وتؤكد لنا ما جاء في كتابه تعالي من أن الله هو الرازق والمعطي، ولا أحد غيره، وإن بدأ لنا في بعض الأحيان غير ذلك، فهو وهم وجهل، فالذي يمنحك سخره الله لـك ولا حيلة له في المنع أو العطاء.. والواقع الذي نعيشه كـل يوم مع نماذج من الحياة البشرية ابرز هذه الدلائل، ومن هـذه الـنماذج شخصية (عمك مسعود)، ذلك الرجل البسيط، الطويل القامة، الطيب القلب، والمقرّب من قلوب كل أهل الحي، إنهـم يبادلونه التحية ولو كانوا منه على مسافة بعيدة حبوراً به وحبوراً بهم.

كان يعيش في عريشة من جريد النخيل وأغصان الشجر، يحيط بها بقايا جدار يريد أن ينقض، فقد فعل به الزمن والصبية أيضاً فعلهم.

كان عمله جمع القش وبقايا الأوراق والخشب في كيس مـن الجـوت، يجـوب به الشوارع والأزقة، ليوقد أفران

المخابز التقليدية الموجودة بالحي آنذاك.. يعيش على حليب عنيـــزاته.. وقـــد شغلن أغلب تفكيره وهمومه، وحديثه مع الآخرين.. كانت كل عنيزة تعيش في عالمه، لها قصة معه، يـــرويها بلا ملل أو كلل، وكانت أحاديثه تلك مليئة بالعبرة والعظـــة والإعجاب بحياة هذه المخلوقة.. يجلب إليهن بقايا الخبـــز التـــي يعثـــر عليها أثناء عمله، وحزيمات البرسيم وكـــومات مـــن التـــبن.. كانت له تسميات خاصة للعملات الورقـــية وكـــان يصفها ب "الكارطة" ثم يتبعها بالعدد الذي تحملـــه مـــن الجنيهات أو القروش، فيقول مثلاً: كارطة أم خمسة أو أم عشرة.. ولكن حساباته تخونه في عمليات الربح والخـــسارة.. فعـــندما يبـــيع إحداهن بفائض قليل عن ثمن الشراء، ولا يغطي غالباً تكاليف إعاشتها يعتبره مكسباً!!

يتبـــتل في محرابه الذي يراه الآخرون خراباً ويراه عامـــراً ومفعمـــاً بالنعيم.. و في سكون الليل البهيم.. ومع خيوط الفجر الأولى ينهض ليبدأ رحلة الحياة من جديد، يوقد ناره ويضع الإبريق فوقها.. يتوضأ، ويدخل في عالم آخر لا يعرفه إلاّ أمثاله، ثم يتوجه إلى ضيفاته يداعبهن ويحادثهن، ويقدم لهـــن وجباتهن بحنو الأم الأرملة على صغارها.. فهن في

انتظار الموعد ربما ليست رغبة فيما يقدمه بقدر شعورهن بالارتياح لمقدمه!! هل كان الود المتبادل بينهما مبعثه أنهن أسـرته وأنـه عـائلهن؟! أم كان مجرد وفاء بوفاء؟ ربما نـستطيع أن نعـرف ما يحمله في نفسه تجاههن، ولكننا لا نـستطيع أن نحدد دوافعهن نحوه وإن كنا نستشعر ذلك من حـركاتهن والـتفافهن حـوله.. يسد مدخل عريشته بأعواد الشجر، ويضع الكيس الفارغ على كاهله، ويمضي إلي عمله المعتاد.. يملأ الكيس ويعود به إلى الفرن، ويبدأ الرحلة من جديـد وفي الاتجاه الآخر من الحي.. في آخر النهار يعود لعريشته، وقد سبقه الشوق إلى محرابه وصديقاته..

فـي المـساء يتقاطـر عليه رهط من أهل الحي لشرب الشاي.. يتسامرون.. هم في عالمهم.. وهو في عالمه.. هل كان شـوقهم لمجالسته شوقاً للبساطة؟ أم كان شوقاً للطمأنينة وراحة البال، التي يرونها وربما لا يعيشونها؟

لـم يعـرف الطبـيب يـوماً وإن سمع عنه، ولم يعرف المعلبات وإن رآها على رفوف المتاجر.. يتلقى الهدية بيديه معاً إكراماً لها ولصاحبها.. وقبل أن يسقيك من حليب عنيزاته يدعو لـك بالعافية والشفاء، ويعقب: إنها بركة من عند الله.. أو ينقع

كـسيرات الخبز الأسمر فيه ويدعوك للمشاركة والممالحة.. لم تتبدل مشاعره بتبدل الأيام بين السعة والضيق، إذ لم يعرف من ذلك تقلّباً أو تغيّراً في داخله، فقد جرد معطياتها من قاموسه، فلم تعد قادرة على إيذائه أو إغرائه، فقط عند ساعة أن يُنعى إليه أحدهم يسترجع ويتحوقل، ثم يطرق رأسه تدبّراً وتمعّناً، ثم يسترجع مآثـر الفقيد ويتدرّع له بدعوات الرحمة والمغفرة.. يرفع كفيه أمـام وجهه، ويرسل رأسه إلى أعلى، ويتمتم بكلمات يصعب تبيّنها، ولكنها تشعرك بهيبة الموقف وروعة الابتهال..

ضحكته كتومة، ودمعته عصية وكأنه يغالب الحياة حتى لا تسرقه مباهجها أو تهزمه بنوائبها.

ذات يـوم جثا على ركبتيه بجوار جداره المتداعي من الجانـب الشرقي، وبدأ يحفر في الأرض شوقاً لما في جوفها.. يلـتفت يمنة ويسرة دفعاً لفضول القوم، وبخلاً بما لديه أن يراه أحـد.. ولكن أحد الصبية انتبه لما يفعل صدفة.. توارى الصبي عن أنظاره واختلس النظر إليه لإشباع غريزة حب الاستطلاع والفـضول عند الناس وخاصة الصبية.. تابع المشهد ولكنه لم يتبـيّن شيئاً إذ كان الزاهد حائلاً بين الصبي وما تدفعه شقاوته إلى معرفته.. جرى الصبي نحو أقرانه في "الجردينة" ليخبرهم

عن كنز عمهم مسعود.. انتشر الخبر كانتشار النار في الهشيم، وتناهى إلى أسماع رفاق التسامر مع الزاهد.. سأله أحدهم عن سـر الكنز الذي يحتفظ به في الركن الشرقي.. أصيب الزاهد بالذهول.. حاول أن يغض الطرف ويغيّر مسار الحديث، أصر السائل، وقد زاد يقينه بصحة ما ادعاه.. خاصة عندما شعر بتجاهل الزاهد لسؤاله.. أصر لاعتقاده أنه كشف سر من يدّعي الزهد والبساطة، إنه سوف ينال إعجاب الآخرين بذكائه وفطنته.. اكتست ملامح الزاهد مشاعر خيبته في كتم سر مضى عليه عقود من الزمن.. هل يكذب وقد تعوّد على الصدق؟ أم يبوح بالسر وأمره إلي الله؟ كان يرى في السر واجباً لله لا ينبغي لأحد أن يعلمه.. ولكن كتمانه وبعدما عرفه الآخرون قد يسئ إليه بتفسيراتهم وتأويلاتهم الخبيثة.. إنهم لا يلتمسون لأخيهم عذراً.

طأطأ رأسه قليلاً، لعل ذلك مبعثه الخجل من الله أو تفكير فيما ينبغي عليه فعله.. ما دام الأمر وصل إلى هذا الحد.. لماذا لا يشركهم في السر ويحملهم أمانة حفظه؟ ويجعل من فكّر في "الانتصار" بإيذاء الآخرين محملاً بأثقال الأمانة في صدره فيزداد رهقاً.. إنه عقاب يجدر بمن يبحث

عـــن أسرار الناس ويحاول أن يتتبع بواطن أمورهم.. هكذا فكّر وقدّر.. رفع رأسه وقال:

- مادمـــتم مـــصرين علـــى معرفة ما في باطن هذه الخرســـاء فلا أملك إلاّ أن أستودعكم سره وألزمكم بحفظه أمام الله.. إنها بندقيتي العتيقة التي شاركت بها في معارك الجهـــاد ضـــد الطلـــيان.. أبقيـــتها لتشهد لي أمام الله، وقد أصـــبحت من عدتي لرضوانه وجنّاته، لقد أحاط بي العوز ســـنيناً، ولم أفكر يوماً في بيعها، إنها ذخري وزادي يوم لا ذخر ولا زاد إلاّ العمل الصالح.. أرجو الله أن يتقبل مني.. ثم أجهش بالبكاء وانهمرت دموعه لتغمر خديه ولحيته على غيـــر العـــادة، فسارع بدس وجهه بين كفيه ربما خجلاً من الـــبكاء، أو ربما خجلاً من الله إذ ذاع سره أو قد منّ عليه بما أعترف.

ســـاد الوجـــوم وجوه الحاضرين، وتبادلوا نظرات اللوم والعـــتاب رغـــم تـــوافقهم جميعاً على ما حدث!! وتفرقوا من فـــورهم.. انـــتهت جلسات التسامر من يومها، هل خجلوا من مـــوقفهم؟ أو كان زهداً منه في مجالستهم مجدداً؟ ربما السببان تضافرا معاً.. لا أحد يعلم تحديداً.

قلت: كان زاهداً في الحياة، وقد زهدت فيه أيضاً، لقــد تخلَّــت عنه باستغنائها عن المخابز التقليدية، ورد علــيها صفعتها فالتزم عريشته.. لقد كان دوجين عصره ولكن بلا اسكندر.

مــرت الأيام، وقد تقاذفت أبناءها بين الميلاد والموت، وغيّــرت الكثير من معالمها، وبدأ غريباً في وسطه وغريباً في مألوف حياة أبنائها الجدد، فتنازلت عنه إلى ملك الموت، وسري خبر وفاته، فاسترجع من يعرفونه وخيّم الصمت والسكون فوق رؤوســـهم المطرقة ودموعهم المسكوبة، وجهَّزوا جثمانه بثمن عنيــزاته ولا نـــدري ماذا فعلن بعد فقيدهن؟ تري هل فعلن ما يشبه فعل أبجر عنترة بعد موته؟ إن صحت الرواية.

الطبيب المجنون وحكاية الموت !!

(لا يحـــق للطبيب أن يجن ولو مرة .. ولكن يحق له أن يكذب مرات !!)

هـــناك مـــثل روماني يقول: للمرء الحق أن يجن مرة، ولكنني أستثني الطبيب إذا أصر الآخرون على القبول بالمثل.. ولا يحق للإنسان أن يكذب ولكنني أستثني الطبيب أيضاً وأعذره إن فعـــل.. ما أصل الحكاية؟.. أحد الأطباء (لا أعرفه بالضبط وليس مهماً من هو، لأنني بصراحة لا أقصد أشخاصاً بل أشير إلـــى تـــصرّف خاطـــئ حدث ويجب ألا يتكرر)، دخل على مريضه ويداه في خاصرته وبنبرة التأفف والتذمر قائلاً:

- خلّي واحد من أقاربك يجيني، نبي نكلمه عليك.

-هـــذا يعنـــي أن حالتي خطيرة يا دكتور.. معناها نبي نموت؟.. لم يعقّب الطبيب، وإن أومأ بما يفيد بالإيجاب تقريباً.. يذكّرنا هذا بالمثل العربي: (أحشفا وسوء كيلة). أي خبر سيئ وتأفف في إبلاغه أيضاً.. من تلك اللحظة اللعينة امتنع المريض

عن الأكل والشرب وتناول الدواء، وبدأ في حالة ذهول وشرود عمـــا حوله مما ضاعف من أزمته الصحية ووطأة المرض، لم يـــستطع الطبـــيب أن يبـــرر له موقفه ولن يستطيع، فهو (أي المريض) ليس طفلاً أو مُسنّاً لا يعرف أسلوب استعمال الدواء مـــثلاً أو أين يمكن أن يجد علاجه حتى يحتاج الطبيب إلى من يفهم عنه.. فالمريض إنسان سوي، عاقل، ومتعلم وذكي وبكامل مـــشاعره وأحاسيسه، لذا فماذا يعني البحث عن قريب، غير ما استنتجه المريض؟، ألا يعتبر ذلك تجاوزاً من الطبيب، ولو من الزاوية الإنسانية على الأقل؟.. والطبيب في مثل هذه الظروف يجوز له بل أقول ينبغي له أن يكذب، ويجوز له أن يزوّر بسمة في الوجوه العابسة الواجمة، وليس ملزماً بمصارحة المريض، ولـــه أن يـــستدرج أحـــد أقاربه ومن الذين يتوّسم فيهم العزيمة ورجاحـــة العقـــل ويـــصارحه بكل ما يريد قوله. ثم حتى هذه المصارحة قد تكون غير صادقة من الناحية الواقعية، ربما هناك علاج لا يعرفه هذا الطبيب أو أخطأ في تشخيص المرض.. إلى مـــا هنالك من مفارقات تحدث في مثل هذه المواقف، وكما نعلم أن المؤهل بداية العلم وليس نهايته..فهل الجنون للأطباء (وهم بطبـــيعة عملهـــم في المواجهة الدائمة مع الموت) مباح؟ وهل جعلـــت طبيعة عملهم هذه قسوة القلوب في بعضهم؟!، والجنون

فـــي المثل الروماني هنا لا يعني ذهاب العقل، بل يعني التنفيس عن مكنونات الصدور أو القيام بما قد يؤذي مشاعر الآخرين.. وقـــد فات أخانا الطبيب أنه ليس كل ما يُعرف يقال، وليس كل فعل قادر عليه، لك أن تفعله، إلا إذا أُصبت بجنون الرومان!!، هذا لا يعني أن أحد أقرباء المريض لا يعرف حقيقة وضعه، لقد صـــارحه أحـــد الأطباء من قبل وقد ألقى بقنبلة صاعقة عليه.. والطبـــيب لا يبالي.. عندما يصارحك الطبيب بمثل ذلك يجعلك تعـــيش جحـــيماً لا يطاق.. جحيم المواجهة مع الموت، وجحيم الـــسر الـــذي يدخلـــه علـــيك، ويلقـــيه في روعك، ويقض به مـــضجعك.. وجحـــيم التـــشتت بـــين الأمل واليأس، والرجاء والقـــنوط، وجحـــيم المأساة التي تراها تمشي بين ناظريك، ولا تستطيع أن تفعل شيئاً، أو أن تقول شيئاً.. لا تستطيع أن تحزن، ولا تستطيع أن تبتسم مداراة، ولا أن تحبس دمعاً، بل لا يجوز لـــك أن تسرح بخيالك بعيداً عن واقعك المؤلم، فنظر مريضك معلـــق بناظـــريك يرصـــد، وعقله يستكشف كل خلجات نفسك وتقاســـيم وجهـــك، وأنـــت تمارس أصعب أدوار التمثيل على الإطلاق، وتراوغ هرباً من أن يلقي بهواجسه في صيغة سؤال متلهف، ماذا قال عني الطبيب؟

- لا شيء سيصرف لك بعض الأدوية وينتهي الأمر.
- هذا الطبيب لا يعرف شيئاً.. أو، أو.. أنك أنكرت الحقيقة؟.

أي حقيقة يريد؟ حقيقة الموت؟ أم الطريق الموصلة إليه؟ بماذا يريدك أن تجيب؟ هل تصارحه ليعيش بقية أيامه في أرق وحزن مقيم، وعذاب نفسي ورعب لا نهاية له؟ أم تكتم عليه ليتعلّق بالأمل وتهدأ خواطره وهواجسه إلى أن تحين ساعة الملاقاة التي طالما فررنا منها جميعاً؟.

لقد ضرب له الموت موعداً، وقرر له مصيراً.

ولكن كان عليه أن يصارحه ليعد نفسه بما بقى له من عمر يتزوّد فيه بالاستغفار وتلاوة القرآن.

- هل يملك عزماً ورباطة جأش؟، الخبر ثقيل وكتمه أشد وطأة. ولا يعلم مدى خطورة إبلاغه.
- إلى متى سيكتم عنه؟، أليس من حقه أن يعلم ما يعنيه وقبل الآخرين؟.
- ماذا يفعل؟ لقد ضاقت به الأرض بما رحبت، وضيّق عليه الناس الخناق بالسؤال تلو السؤال، وكابوس السر يضغط عليه ولا يبارحه، لقد أذهله عن جلسائه وأثار انتباههم،

فعـــادوا بالسؤال وعاد بالكذبة الأولى، رغم مرارة الكتمان ومرارة الكذب.. ما أثقل السر وما أصعب طيه، خاصة إذا كـــان صـــاحبه معـــرّض لتبرير كل ما يفعل من أجل أن يتكـــيّف مـــع متطلـــبات السر اللعين دون أن يبوح به أو يكتشف الآخرون كوامن نفسه المتعبة.

يدفـــع لـــه الخبـــر على جرعات، ويدعه يواجه مصيره بالصبر والدعاء.

كـــيف تكـــون جـــرعاته؟ وقـــد ملأ عليه الدنيا بالآمال والأحـــلام، وحدثه عن أمانيه في مستقبل الأيام..لا، لن يزرع الشوك بين أزهار الطموح ويبث العدم في ثنايا الوجود، ثم.. ثم من قال لك إن الطبيب يعلم الغيب؟، وأن حديثه لا يقبل النقض؟ هل أخبره عزرائيل بشيء؟.

بالعلم وحسابات العلم، وهذا ليس غيباً.

لكنه في كثير من الأحيان يجانب الصواب.

ربما .. .

ســـألني أحـــد المرحومين يوماً وقد لازمه هاجس الموت كثيراً، قبيل وفاته. ما السبيل إلى النجاة من الموت؟!!، أجبت:

السبيل هو أن نلج عالمه عندما يحين، وليكن أملنا في رحمة الله كبيراً، فهو أرحم بنا من أنفسنا، ما بالنا نخاف من رحمة الله؟!!، ولمـــاذا لا نطمئن إلى أننا مقبلون على كريم غفور؟ من قال إن الموت عدم؟ لقد صرخنا عند مولدنا محتجين على خروجنا من أرحـــام أمهاتنا، ثم وجدنا عالماً أرحب وأوسع، فلندخل إذن إلى العالم الآخر بكل شجاعة، فهو بالتأكيد الأجمل والأروع، عالم لا هــضم فيه ولا ظلم، فالقصاص عندئذ منك أو لك، عدل مطلق، والعدل المطلق خير مطلق.

فــإن كـــان القصاص منك فهو تطهير وإن كان لك فهو تعــويض.. فالموت فيما أرى كالمدخل الخرب لقصر منيف، لا ينبغـــي لـــنا أن نجزع، ولكن لا ينبغي لنا أن نستهتر أيضاً، فكلاهما شر، إلا إذا كان الجزع للعظة والتوبة، وكان للحذر من مفـــاتن الدنيا ووسوسة الشيطان.. الناس نيام إذا ماتوا انتبهوا.. كمـــا قـــال عليه الصلاة والسلام، إذن هو خروج من حلم لعله كابوس يزاح عنا، وهمّ نستريح منه.

تابعـــوا معي.. فالقصة مثيرة وعجيبة!!، الذي حدث بعد مـــصارحة الطبـــيب اللاإنسانية، خرج المريض وهو في حالة هذيان أو شبه ذلك، سأله أحد أقاربه عن سبب خروجه قال:

-شعرت في لحظة الخبر أنني في زنزانة الإعدام وانتظار الموت، لا أعلم ماذا فعلت إلى أن وجدت نفسي في البيت.. اتفق أقرباؤه وأصدقاؤه على الخروج به إلى أوروبا، ومن متطلبات الحصول على التأشيرة تقديم تقرير طبي عن الحالة.. ذهب أحدهم لإحضاره من الجهة المعنية، رفض المعنيون منح التقرير بحجة أن المريض خرج بدون إذن!!.

- المريض خرج وهو لا يعي ماذا فعل.

- اللوائح هكذا تقول.

- اللوائح عندكم للعقاب أم لتنظيم العمل ؟، اللوائح من أجل الإنسان أو ضده ؟، صحيح، اللوائح تملك نصوصاً، ولكنها لا تملك شعوراً إنسانياً !!، فالذي ينفذ اللوائح هو المسئول عن إنسانيتها !، خاصة ونحن هنا في حضن العمل الإنساني المحض، يتعامل مع الإنسان لا مع الآلة.. يتعامل مع القيم والمثل لا مع الروتين الإداري العادي في قضايا مصلحية أخرى.. لو كان هذا المريض قريباً لأحد النافذين في تلك الإدارة.. تُرى ماذا سيفعل؟، أعتقد جازماً أنه سيتجاوز كل اللوائح وتظهر عليه أعراض الإنسانية بكل تجلياتها، ويفعل ما يمليه عليه ضميره الذي يستيقظ وينام حسب الطلب !!، واللوائح عندئذ عتيقة بالية بعدما بعث فيها

الحـــياة مع الآخرين، ورأى فيها كل قيم العدل والصدق والنزاهة والـــنظام !!، فهل يمكن لنا أن نشتري الضمائر لأصحاب المهن الإنـــسانية ؟!!، لا ســـبيل إلـــى ذلك إلا بالثقافة والوعي وإحياء الـــنفوس، وقـــد ثـــبت أن ذلك لا يتحقق بمجرد أن نمنح البعض مؤهلاً علمياً وإن كان إنسانياً في أصله وفرعه.. الطبيب هنا (أيها السادة) جن أكثر من مرة وتجاوز ما سمح به حتى المثل الرومانـــي !!، ورأى هنا في الكذب مثلبة وربما لم يره في غير هـــذا الموضع !.. لو قدر كل منا شعور الآخر وتصور نفسه في ظـــروفه وحالـــته لمـــا حدث ويحدث هذا التصرف وأشباهه في المعـــاملات الإدارية والشخصية والاجتماعية ومن باب أولى في الجـــوانب الطبـــية والإنسانية.. نحن هنا في حاجة إلى نظرة في المـــناهج التربوية تبدأ من رياض الأطفال ولا تنتهي في معاهد وكلـــيات الطـــب.. فمـــن شـــبَّ على شيء شاب عليه.. بعض المدارس الطبية ترى ضرورة مصارحة المريض، ولكن هذا (ياسادتي) لا يكون إلا في حالة إمكانية العلاج ولحث المريض على الاتباع الصارم للتعليمات الصادرة.. أما مصارحة المريض بدنـــو أجلـــه فلن يزيده إلا معاناة وقد يصاب بالانهيار ولا يملك لنفسه شيئاً يمكن أن يدفع عنه الموت حتى نخلع رداء الكذب فجأة ونـــصارحه !! تـــدخَّل الأطباء الإنسانيون وانحازوا إلى الإنسان

الـــذي كرمه الله في الأرض، لقد انحازوا لآدميتهم وإلى واجبهم فـــي الحقيقة، وأخذوا بروح النص لا بحروفه، ولكن هل يصلح العطـــار ما أفسد الدهر؟، أكبر الظن أن الوقت قد فات، وما بقى أشبه برمة بالية لا سبيل إلى ضخ الحياة في أوصالها.. هل نقول والحالة هذه أن الطبيب تحوّل إلى جلاد؟ بعدما افترضنا أنه بلسم يـــبعث الأمـــل في النفوس ويكسر حدة اليأس فيها، ويخفف من وطـــأة الألم وشدة الحزن، إن إساءة طبيب واحد للمهنة علمياً أو أخلاقياً كفيل بهروب الآلاف إلى تونس وغيرها، إنه ينشر الذعر بين المرضى وذويهم ولا يصلح من الأمر العشرات من الأطباء الجيدين، فالإساءة من الذي يرجى منه الإحسان والفضل عظيمة ولو كانت من واحد (غرّد) خارج سربه.. ولو افترض كل عامل في مجال الطب أن المريض الذي بين يديه هو أبوه أو أمه، أخوه أو ابنه، لأكرم الله هؤلاء بالأجر العظيم وزادهم علماً وتواضعاً، وأحـــبهم الناس ورفعوا من قدرهم ونالوا نصيبهم وافراً في الدنيا والآخرة، ولا يغيب عن بالنا صعوبة التعامل مع بعض المرضى ومرد ذلك غالباً لقسوة المرض وتبرّم المريض من آلامه، ولكن المحـــبة الحقيقية والوفاء الصادق للمهنة لا يكونا إلا في اللحظات الـــصعبة التي يواجه بها المعالج المريض وآلامه، وعناده أحياناً، بـــصدر رحـــب وابتسامة راضية تنم عن نفس سمحة وكبيرة..

ولـــيس عيـــباً أن يرجع أحدهم لزملائه في المهنة لتدارس حالة مريضه للوصول إلى أفضل السبل، إنما العيب الغرور، ورفض المـــشورة وقـــد اســـتكثر علـــى الآخـــرين أن ينال من عقولهم وتجاربهم، ما يدعم خبرته في مستقبل الأيام.. فحياة الناس ليست هينة، وليس لكل مواطن القدرة على الفرار إلى الآخرين.. رحم الله مريـــضنا لقد مات وبه غصة زرعها الطبيب المجنون، ومن يدري، لربما زرعها في غير صاحبنا من أهل القبور من قبل!!.. يـــا معشر الأطباء هل يملك أحدكم رداً مقنعاً يبرر به ما حدث ؟ وإلاّ فـــويلٌ للقاســـية قلـــوبهم من حساب الديان الذي لا يموت.. ويومها لا تنفع الكتوف ولا حتى الأرداف لو كانوا يعلمون.

هـــذا الغول الذي اسمه الموت، يغرس أنيابه فينا، ويقرع أبوابنا بشدة لينتزع منا قريباً أو صديقاً ثم لا يهدأ له دور، ولا يهـــنأ له خاطر حتى يعض بنواجذه في أجسادنا ويمضي قدماً، قدر مقدور ابتلانا الله سبحانه وتعالى به ولا راد لقضائه، يُدخلنا في عالم نسمع عنه، ولا نراه، نخافه، ولا نعلم عنه شيئاً، سوى مدخله الرهيب، قبر موحش يكتم الأنفاس يمنع الحركة، يحجب الـــضوء، يُهـــال علينا التراب الثقيل الذي طالما غسلنا أجسادنا تخلـــصا مـــنه.. دفعنا أموالنا لمن يدّعي أنه يؤخره عنا.. ولا

محــيص، نعقد الآمال في أعشاب تذروها الرياح أو تمائم نقطع من أجلها ظهور المركبات وأجنحة الطائرات.

هكذا هي الحياة، يخرج أبناؤها من البطون ليودعون القبور وبــين هذا وذاك شقاء وهواجس وهموم، يملكون بأموالهم وكدهم التــراب ثــم يطــويهم بين ذراته بلا حول ولا قوة.. عجيب هذا الإنسان، يعلم مصيره ورغم ذلك يسخر ويبطر ويعربد وكأنه من الخالــدين!!، يــستعير جسداً يُلبسه الحرير والذهب، ويرشه بشتى أنــواع العطور!! ثم يُلقى به في غياهب الظلمات عفناً، منبوذاً من الــذين قالــوا إنهم أحبوه، وأذرفوا على فراقه الدموع حزناً!!، ثم يطويه النسيان ويجف غديره من ذاكرتهم، وكأنه لم يكن!!.

فــلا يجدي نوح باك أو ترنم شاد، وتشابه حينئذ صوت الناعــي والبشير في كل ناد وقد أعاد أبو العلاء المعري علينا قصته منذ ألف سنة.

ترونـنــي لعبت بضمائر النحو من المخاطب إلى المتكلم إلى الغائب تخفيفاً عليكم من هول هذا الحديث، إنه ثقيل، ثقيل، لا يقبله الكثيرون بنفس راضية مطمئنة، ولكن لا بد من الذكرى إنها تنفع المؤمنين.. فالحمد لله الذي أنعم علينا بالإيمان نشد به أزرنا ونلج به قدرنا.

القابلة

امرأة في الستين من العمر، نحيلة الجسم، قصيرة القامة، تميل بشرتها قليلاً إلى السمرة، يعرفها جميع أهل الحي الشعبي، والأحياء المجاورة .. تدخل كل البيوت كأحد أفرادها، فهي سيدة الجميع، كبار السن يدعونها (الحاجة) والأصغر سنا يدعونها (الخالة)، أما الفتيان والفتيات فيدعونها (الحنة) .. يحملون لها في قلوبهم حبا وتقديرا عظيمين .. فقد قدمت للجميع صورا من المعروف والجميل، وساهمت في كل ما يحتاجه الناس من عون .. فقد كانت القابلة والمصلحة الاجتماعية والطبيبة الشعبية .. كانت تنصح بالأدوية الشعبية وتعالج بها بعض الأمراض عند الأطفال والنساء، كان بيتها كالمستوصف عندما كان العلاج نادرا والوصول إليه عسيراً .. كانت تشبه ما يعُرف في الصين الشعبية بالأطباء الحفاة، ورغم كل ذلك لا تنتظر أجرا أو ردا للجميل، كان راتب زوجها يكفي حاجات أسرتها الصغيرة.

يستشيرها الشباب عند اختيار زوجاتهم، ويستشيرها أهل الفتاة في الخطباء، كيف لا ؟!، وقد عرفت عن الجميع أكثر مما يعرفه بعضهم عن بعض ..

أصـــلحت بـــين الأزواج، وأرجعت المتجاوز عن حده، أصـــلحت بين الجيران، وكفت الشرطة ومجالس القضاء الكثير من العناء..

كانـــت عاقـــرا، ولكنها ليست كالنساء في طبعها، فرأت بعـــين العقـــل ما لم تره الكثيرات من بنات جنسها، فعمدت إلى تـــزويج بعلهـــا بأخرى، رغم معارضته إخلاص لها .. لقد قيّم الأمر بعاطفته وقيمّته بعقلها !!، فلابد للأسرة أن تمتد فروعها، ولا يهم إن كان من رحمها أو من صلب زوجها، فالاثنان مكوّن واحـــد.. أنجـــبت الضرة الأولاد والبنات، ولكن أمر تربيتهم كان بـــيدها، وفي أثناء مرض زوجها منعته من التدخين، فكان يختلس بعـــض الأنفـــاس من أصدقائه الزائرين.. ويتندر هؤلاء الأصدقاء بتصرفاته المضحكة، ولكنهم كانوا مثله يختلسون هذه الأنفاس!!.

مات زوجها، فأصبحت كرجل البيت في إدارته !!، وزاد اهتمامها بالأسرة التي كبُرت مطالبها .. تقدَّم بها السن، ورغبت الـــضرة في العودة بأبنائها إلى بلدتها.. قبلت الحنة مرغمة أن

تغـــادر مـــن كانت في قلوبهم وفي عيونهم.. تزوجت الضرة، وتـــركت المجاهدة وحيدة دون عائل أو معين.. فأصبحت قسوة الظـــروف المـــستجدة عبـــئاً ثقـــيلاً على كاهلها الهزيل وسنها المـــتقدمة.. ولو وقف الأمر عند هذا الحد لربما صمدت، ولكن عـــواطفها أصـــيبت بفراقها لمن أحبتهم وأحبوها، ولم يستطع الوســـط الجديـــد أن يملأ فراغ فؤادها بما كان يحمله من مودة وصفاء تجاه الأولين، فآثرت العودة وحيدة إلى حيث أحب قلبها و استأنـــست مشاعرها.. ولكنها وجدت مجتمعا آخر.. لقد تغيَّر الـــناس وتجاهلوا ما كان عليه طبعهم وخلقهم!!، وانغمسوا في نعيم الوفرة النفطية التي أهالت عليهم نقودا ومقتنيات.. استغنوا عن خدماتها بتوفر سبل المواصلات واقتراب المراكز الصحية من منازلهم.

استغنوا عنها وعن أمثالها.. فكان النسيان أو قل التناسي!!.

آثرت الانسحاب من حياتهم حتى لا تكون حملا ثقيلا.. أصُـــيبت بالخـــرف، في أواخر أيامها، ربما حزنا واحتجاجا!، ورغـــم ذلك لا زالت ذاكرتها تحمل الكثير في طياتها من كنوز الـــوفاء والحـــب للآخرين، فلا تكف عن النصح والإرشاد في ســـويعات التعافـــي، فالطبع يسود في مسلك الإنسان حتى وإن

شاب العقل ما يعكر صفوه وقدرته على الانضباط، يلهج لسانها بالحمـــد والثناء، تحاول أن تلحق بوقت صلاتها، وتبكره أحيانا ظننا بحلوله، فهل يحمل الإنسان عقلين؟!، أحدهما ظاهر والآخر بـــاطن.. أم الطبع المتأصل لا يخضع لهوس العقل واضطرابه أحـــيانا؟، أم هـــي العادة التي أكسبت الجوارح نمطا سلوكيا لا محيد عنه؟!.

لا نعلم تحديدا، فعالم الإنسان شديد التشابك والتنوّع، وقد أعجز علماءه سير أغواره وتفسير ظواهره فضلا عن بواطنه.. ودّعـــت الحياة بأثقالها وهمومها، فلم يعد في الجسد والنفس ما يدعـــوهما للـــبقاء وســـط أناس بادلوا الحب بالتجاهل، والوفاء بالمـــشاغل.. رحمهـــا الله رحمـــة واسعة وأسكنها فسيح جناته إكراما لجهادها من أجل الإنسان، إنه سميع مجيب.

المعـــروف

صــــبي يافع، يعج بالحيوية و النشاط، و يمللك قدرًا من الذكاء المحبط، لا تعليم يغذى العقل الملهوف، ولا غذاء ينمي الجسم النحـيف، ولا كـساء يًـنعمه بالدفْ.. لفت نظر أحد الميـسورين، يعـرفه، ويعـرف أسرته، يرصده في حركاته، وسكناته، و في قلبه حسرة.. لو كان هذا الصبي ابني.. ولكن لا بـأس، يمكن أن نتصدّق عليه، لعل معروفي يُثمر أجراً في آخـر حياتي.. اقترب من الصبي، وأوما إليه.. حضر الصبي مسرعاً، أخذه من يده، ودلف به إلى السوق، اشترى له قميصاً، كـان طويلاً، يتدلى حتى كعبتيه، لقد كفاه إذن من لبس سروال، وطاقية أُحيكت من نفس القماش، ثم أخذ بيده مرة أخرى.. دخلا جامع القرية.. التلاميذ يرتلون بصوت عال آيات الذكر الحكيم، وجذوع ظهورهم تهفو وتنهض على ألواحهم في حركة تلقائية.. والشيخ يرشم في لوح لصبي بجواره.

- السلام عليكم.

- وعليكما السلام و رحمة الله.. تفضلا.

- أريدك يا شيخنا أن تضم هذا الصبي إلى تلاميذك.

- نظر الشيخ إلى الصبي.. تلعثم في الرد.. فالصبي لا يملك ما يدفعه أجرة عن تعليمه.. عرف الرجل مكنونات خلجاته، انتحى به جانباً، وهمس له: سأتولى دفع أربحتك، لا تقلق.

انفرجت أسارير الشيخ، و أشار إلى الصبي بالاقتراب، دفع لـــه بلوح كان أحد الصبية قد تركه ودخل سوق العمل، ضم الصبي اللـــوح بعضديه، وضغط به على صدره.. ساحت دمعة على خده، عاجلها بيده حتى لا يراها أحد، و لكن حركته أباحت بسره، و إن لم يعـــرفا السبب، أكانت دمعة فرح أم دمعة حزن، الدموع عادةً تجلبها الأحـــزان، و لكـــنها تـــسقط مـــع لحظات الفرح أيضاً.. ما أغرب الإنسان!!، تختلط دوافع المشاعر و الأحاسيس في نفسه حتى تغيب عنك حقائقه، ويعجز هو ذاته أن يعبر عما بداخله، و لو كان مفوّهاً على شاكلة سحبان بن وائل، فتتناقض ملامحه مع كوامنه.

مـــا هـــذه النفس العجيبة التي تحمل أسرارا يصعب ســـبر أغوارها؟، لقد أتعبت علماءها في معرفة مظاهرها، فما بالك ببواطنها!!.

حـــان موعد الانصراف.. عاد الصبي إلى البيت، لا يعلم كـــيف!، و لا يذكـــر أن رجلـــيه أو صلتاه، أم جاء على بساط الريح!، و لا يعلم أي الطرق سلك.

وجـــد أمه تمسح بالعرجون أرضية السقيفة، و أباه في ركن الـــدار، و قـــد مدد رجليه فوق بعضهما، و بين يديه ظفائر السعف، يعدها لموسم التمور.. أزاح العرجون من يد أمه وعانقها بحرارة.

- أمي.. لقد وجدت الشبيك و اللبيك.

- أصـــاب الأم الذهـــول .. مـــن مظهـــره الجديـــد، ونفسه المنشرحة، ووجهه المستبشر، لم تُجب أو تسأل، لقد أذهب الحدث وعيها، واستسلمت لصدمته، أكمل الصبي حديثه:

لقد دخلت الجامع، و بدأت أقرا القرآن.

انفرجت ملامح الأم، ثم ما لبثت أن انقبضت ثانية:

- و لكن من أين سنأتي بأربحة الشيخ يا بني؟

خرج الأب من ركنه، و قد سمع حديثهما:

- تدبّر يا بنت الناس.. و فرّي بيضة من دجاجتنا، ليدفع بها ابننا للشيخ كل يوم أربعاء.

انتبه الأب إلى القميص، و سأل:

- من أين لك بهذا يا عمر؟

- عمي محمود، عمي محمود.

- لا بد أنك تسوّلت منه ذلك؟.

- و الله العظيم، ما سألته يا أبي.. هو، هو الذي أخذ بيدي و اشتراه لي، ثم أحضرني للجامع، وحدّث الشيخ في أمري.

كـــتم الـــوالدان تقديـــرًا و إكبارًا للرجل، ولكن دموعهما سقطت غصباً، عرفاناً بالجميل.

دارت الأرض بسنواتها، و القمر بأعوامه، و عمر أصبح شاباً، يجمع الكنز في صدره، و يلهج به لسانه و يكبر به عقله.. و محمود يراقب من بعيد حتى لا يشعر الأسرة بطوق جميلة.. جلس يحاور نفسه:

- لقـــد أديـــت مـــا ينبغـــي عليّ فعله، ومن الله الأجر والثواب، إن شاء الله.

- و لكنك، كمن فصّل قميصاً بدون أكمام.

- الأكمام يمكن أن يتولاها غيري.

- ما المانع من أن تكملها أنت؟.
- لو كان ابني لأصبح واجباً.
- وما يدريك أن يكون ابنك الذي لم تتجبه؟.
- معنى هذا أنني أريد ثمناً لمعروفي؟.
- لا يعني هذا بالضرورة، فالمعروف يعود إلى صاحبه من حيث لا يدري، المهم في الأمر، أنك لم تتبعه بالمن والأذى.
- بالمن و الأذى؟، لم و لن أفعل بإذن الله.
- إذن أكمل معروفك، وسوف ترى.

- التقى محمود الشيخ.. تحدثا في أمر الشاب، فأثنى الأخير عليه، و تمنى على أهل المعروف مساعدته لإكمال دراسته.

- كيف؟.
- أن يدرس بالأزهر الشريف في مصر.

- كتم محمود سرّه في نفسه، و سأل عن الأمر، و أعد متطلبات الدراسة، ثم جاء للأسرة مقترحاً ما عزم عليه بشأن ابنها.. قبلت الأسرة، و دعت من مجامع قلوبها له.

وفي الأزهر، هناك في عالمه الجديد، بدأ الشاب حياته، و قد اتخذ مع رفاق له خلوة برواق المغاربة مأوي، كانوا ثلاثة وهـو رابعهم، يتقاسمون اللقمة و الكتاب، وهموم الغربة وظروف المعيشة.

ولكن الفرقة دبت بينهم، بسبب اختلاف نظرتهم في الإنفاق و الإقامة ومتطلباتها.. اقترح أحدهم أن يذهب كل واحد لحال سبيله، وافق عمر على مضض.. لقد كان يرى من الواجب أن يصبر كل منهم على ما قد يراه تقصيراً من رفاقه، من أجل أن يتعاونوا على المصاعب و ظروف المعيشة، ولكنهم أصروا بعناد.

تقاسموا ما بينهم: كتبهم، أدوات طبخهم، بقايا طعامهم.. ووقفوا عند رأس البصل، لمن يؤول!!، نهض أحدهم مسرعاً، تناول سكيناً، قطع به الرأس إلى أربع.. هكذا انتهى مابيننا.

كتم الآخرون ضحكة ملؤها السخرية و الامتعاض، لقد وصل بهم الأمر إلى هذا الحد.. إن الحساب في وقت الجفاف عسير، و التسامح عند الشجار بعيد.

استمر وضعهم كذلك أياماً، و قد عانوا جميعاً إنفاقاً أكثر، و موقفاً أصعب، و ضاع من وقت تحصيلهم العلمي

الكثيــر، و لكــن المكابــرة أعمــتهم عن إنصاف بعضهم بل وأنفــسهم.. إنهم يحتاجون لمن هو أكبر عقلاً، و أوسع وعياً.. فكــان عمــر مبادراً، فاقترح العودة إلى روح الجماعة، فكانت موافقتهم بعد أن صقلتهم التجربة وهذّبتهم الحاجة.

أنهــى أربعــتهم الدراســة، وجاءوا إلى بلدهم.. تقلدوا مناصب مرموقة به، إن بلدهم في حاجة ماسة لعقولهم، إنه في طور البناء و النهوض.

دخــل الــشاب عمــر سلك القضاء، و شهد له الجميع بالنــزاهة و الحزم، و ساهم في تحقيق الأمان و الطمأنينة بين أبناء شعبه.

سبحت الأرض بمحمود سنوات، و لم يرزقه الله بولد يرثه، فأسالت أملاكه لعاب بني عمومته.. وبدأ رحلة معاناته معهــم، لقــد كبــرت أســرهم و أصبحوا برجلهم و خيلهم يستعرضون قوة شوكتهم.. لقد وسوس الشيطان في نفوسهم.. لمــاذا لا يستحوذون على أملاكه، أو ينهشوا بأنياب تكالبهم أكبــر قدر منها، لقد ظنوا أن هذه الأملاك سوف تفلت منهم لصالح أصهار قريبهم.. لم يكفهم ما منحه لهم طيلة عقود، لقد ذكــرّهم بأنها ستؤول إليهم و لكن إلا يصبر المتعجلون حتى

ينالوا حقهم بشرع الله.. الوسوسة غلبت التدبّر، و النفس فلتت من عقالها.

تـــناقل الـــناس أخـــبار محمود و مصيبته، و تناهت إلى أســـماع القاضي.. تردد كثيراً، كيف يتدّخل في شؤون العائلة؟ فكَّـــر، و قـــدَّر، و أسرَّ في نفسه أن يتدخل بالمعروف وبصفة شخصية، ليضع حداً لتجاوزهم.

رفـــض الأقـــارب تدخله، و اعتبروه تهديداً مبطناً لهم، وتحريضاً من محمود، فأجمعوا الرأي على (تأديب عمهم)!!، اقـــتحموا بيـــته، وأوســـعت عصيهّم له ضرباً .. وتحوّل آثار الضرب إلى إعاقة.. وفقد زوجته إثر جلطة في الدماغ، أُصيبت بها هلعاً و خوفاً مما رأت و عايشت.

زار القاضي من كان في مقام أبيه، وسهر على شؤونه، وحملـــه إلـــى الخـــارج ليرجع به في عافية و سلامة.. اقترح القاضي على محمود أن يتزوج، لعله يرزق بولد، امتنع الرجل زمـــناً، وفاءً لزوجته، أعاد القاضي عليه الاقتراح، و ألح عليه مرات، قال له:

– الأمـــور لا تـــؤخذ دائماً بالعواطف، إنما تؤخذ بالعقل وحـــسن التدبيـــر، أنـــت لـــم تتزوّج في حال حياتها، فلم تؤذ

مـــشاعرها، هذا هو الوفاء، أما وقد انتقلت إلى رحمة الله، فإن وفاءك الآن هو الدعاء لها بالرحمة و الغفران.

نفـــذّ محمود وجهة نظر صاحبه.. و أنجبت له الزوجة طفلين توأمين، احتفي بقدومهما و أعد الولائم لجيرانه ومعارفه، و قد رفض أقاربه دعوته خجلاً أو حقداً، لا أحد يعلم مكنونات صـــدورهم.. بعد سنوات قليلة، أُصيب محمود بمرض عضال، وشـــعر بدنـــو اجله، فأوصى القاضي بأسرته خيراً، و قد تولّى القاضي أمر الأسرة، و اهتم برعاية الطفلين .

وقد أدار أملاكهما، و أشرف على تعليمهما، ونام محمود في مرقده الأبدي قرير العين، و مطمئناً إلى أن معروفه لم يذهب هدراً.

الوغد الرعديد

بعد جهد جهيد، وعناء شديد، وعمر كديد، منحه المعهد الدبلــوم العنيد، ربما تخلّصا من طبعه البليد، وشره الأكيد، لا يأنسه أمباشـــي ولا عمـــيد، ومع الجميع أهوج عربيد، ورغم ذلك في نفسه دائما صنديد، وانه على الباطل بعيد، وصاحب رأي وعقل سديد، هذه أغلب ظنونه ولا جديد!!.

ذات يــوم جلــس مع ذويه في مناسبة ولكنه وحيد، وقد نـــبذوه فصار كالشريد، وقد بدءوا في حديثهم المفيد، عن العلم وفــضله المجيد، فأبت نفسه الأمارة بالسوء أن تحيد، فدخل في غير المجدي من الطارف والتليد.

ادّعـــى أن المركب بمقدمته الحدباء يطفو ولا غير هذا علم يفيد، فسخر منه أحدهم قائلاً:

– إذن الـــسيف يطفــو كــذلك لان الحدب من صفاته يا رعديـــد، فانـــتفض يكــيل الشتم للمجلس ولا رشميدس الجاهل بقانون الطفو العتيد، وسخر منه الشعراء في كل قصيد.

ذات مـــرة جلس إلى رجل وقور ينصحه بعدم الوقوف للسلام على أحد ولو جاء من العاصمة مدريد، واعتبر ذلك تقرّبًا لغيـــر الله وخـــضوعاً للعبـــيد، فأسرّها الوقور في باله وأصبح لحركته رصيد، فلما جاء أحد الرعاع متبختراً قام الوغد مهرولاً وقد استقبله من بعيد، فسألني الوقور عن هذا القادم فأجبته:

- إنه أبن إله ذاك الوغد الرعديد. فضحك وقال:

- إنـــه ذو طبع فريد، لا يشبهه جن مارد أو عاجز قعيد، ولم يفلح على أي صعيد، إنه شقي ولم تعش أسرته في يوم سعيد، ومـــا عاشر قوم إلا وأصبح لديهم بغيض، وخصيماً للعديد فتكاثر أعداؤه وقال هل من مزيد؟، نصحوه بالتقوى فقال لست بشيطان مريد، وأني ممن يخاف وعيد، ولكن هل كان من أصحاب العقل الرشـــيد؟ وكـــان فـــي الشر زهيد، وللإساءة غير معيد، لو صح لأصـــبح ذلـــك ما كنا نريد، ويتوقف عن فرز الصديد، ويمسى بجناحـــيه خفيض، لوالديه والطفل المريد.. ولكنه كان من الحق طـــريد، وهـــو إلى الظلم لهيد، مسكين زوجه والوليد، ولو طال عمره فمن سوء حظ الحفيد، لقد كان لبخله عن الحق مُجيد.

أعلـــن يـــوماً أن الأكـــل المجاني لذيذ ولو كان من سعف الجريد، لو هادن الناس لأصبح في عيش رغيد، وما طاله لعن ولا

تـــنديد، ومـــا قفلت عليه أبواب الحديد، وما أدانه القاضي وأصبح لخصمه سنيد، وما بات لشر أعماله حصيد، وشهد عليه كل سامع وشهيد، لقد أساء إلى صهره العقيد، وأضر بسمعة رفيقه أكيد، وما زال لوسوســـة إبليس رفيد، فشكر له الشيطان سعيه وبه يشيد، ما ضره لو كان لهدى الرحمن حميد، ولصراط ربه ملتزم مُريد، لقد قطـــع رحمه في يوم العيد، وأقسم ألاّ يأكل من ضحيتهم القديد، إلا إذا قبّلوا يديه كالعبيد، وأعطوه من حقهم ويزيد.

يـــرى فـــي كل الناس أمورهم تعقيد، ووحده من يملك الصواب والتحديد، ولو كان ذا سلطان عتيد، لرأى شعبه نجوم الظهر في صيف صهيد.

مـــرض.. وأصـــيب بـــألم مكـــيد، زاره عامل من أهل الـــصعيد، فأشـــار عليه بدم القنافيد، يطبخه مع أعواد العناقيد، ففعـــل.. فمرَّ عليه يوم من أيام الوعيد، فنام الصعيدي وبنكايته سعيد، وقد شفى صدره من ظلم كميد.

جاء من أقصى المدينة رجل يسعى له بقصة علاج ظنه مفـــيد، فاتخذه ما دام ليس بثمن ملزم التسديد، وجاء الموت مرة أخـــرى لحـــياته بالـــتهديد، وأضحى بالحمى يرتعد كالمغمور بالجلـــيد، فاتـــصل بهاتـــف البريد، طالباً إسعافه من داء شديد،

ولعمـــره المزيد من التمديد، فلا حضر جار ولا عاده معيد، لقد أقرضهم جميعا ظلما وأخلفهم كل المواعيد.

تجرَّع السم من شدة بلائه ومات شبه وحيد، وقد بدد ماله فـــي غيـــر طاعـــة الله كل تبديد، فلم يعد لديه من الدنيا والدين رصيد، وعبّد طريقه إلى جهنم شر تعبيد ، هذا جزاء كل فاجر عربيد، وما ربك بظلام للعبيد.

رقص العجائز

جلـــس يتابع أخبارهم عن بعد ، يبكي تارة، ويرقص تارة أخرى، رغم تقدمه في العمر.. يخفي كل ذلك عن أعين عائلته حتى لا يظن أحدهم أنه قد جن.. كيف يرقص العجوز، وقـــد عرف عنه الوقار والخجل؟، ذروة الفرح بنصرة أمته، حرّكت جسده المتداعي على أنغام وأناشيد النصر .. حرّكت جـــسده الـــذي طالمـــا تـــصلّبت أطـــرافه من هول الهزائم والانكـــسارات عبـــر ســـنين عمره المديد.. صحيح ألمت به سويعات من فرح في مناسباته الاجتماعية، ولكنها لم تحرك شيئا في جسده غير ابتسامات معبرة أو دمعات نزلت غصبا ،تعبيـــرا عـــن انشراحه.. أما أخبار بني عمومته هناك، فقد أثلجت صدره ، وأذهبت وقاره، وأطلقت الجسد على سجيته.. علـــى غير توقع دخل أحد حفدته.. استغرب المشهد.. انطلق بفطرته .. يا أمي جدي يرقص.. جدي يرقص.. تداعت بقية الأســـرة لتـــشهد مـــالم يخطـــر على بالها يوما .. هل جن

العجوز؟! ربما أساء الحفيد الظن .. لعل العجوز يشكو ألما.. ألم يرقص الطير مذبوحا من الألم.. دخلت العائلة لترصد ما يشبه الظاهرة الكونية في نذرتها.. وجدته مستلقيا على ظهره، وينتحب.. التفت حوله.. عاينته.. أجاب:

نعـــم كنت أرقص.. كنت أرقص.. هل الرقص محرّم على أمثالي؟، ألست إنسانا أملك من المشاعر والأحاسيس ما يدفعني إلى الفرح؟، ألا يحق لي أن أعود إلى طفولتي، وألعب كالأطفال؟.

ذهل الجميع، وقد غمرهم قدر من الفرح محاكاة له.

تـــدخل الطفـــل بشقاوته.. جدي، قم نرقص معا.. غمره العجـــوز فـــي حضنه ونهض يرقص من جديد.. رقص وبكاء مظهـــران متناقضان ينبئان عن نفس تصارعا فيها الحزن التالد والفرح الطارف !!.

أتعبه الرقص والطفل يطلب المزيد.. جلست الأسرة تستطلع الأمر ، لعلها تعرف سر البهجة الغامرة في نفس عميدها، لتستزيد من لحظاتها.. عرفت السر.. وأصبحت تتابع الأخبار لحظة بلحظة لتنقل إليه ما فاته في سويعات نومه أو صلاته.

الطفل لا يكف عن السؤال:

- هــل انتــصرنا يا جدي؟، والجد يجيب في كل مرة، وقد أصلح من هيئة شنبه:

- نعــم يابنــي.. انك محظوظ، لقد عشت عصر الأبطال.. يابنــي بــوارق الأمل لاحت في أفقكم، وغمائم الإحباط انجلــت عن سمائكم.. لقد أضاء الإيمان دروب طلائعكم، وحدد مسار مستقبلكم..

- يابنــي لم يعد لنا في العمر بقية.. ولكن فرحنا من أجلكم، ورقصنا من أجل بوادر غيثكم.

فــي تلــك الجلــسة العامرة بالحب والنصر، دخل رب الأســرة.. وجد انشراحا في الوجوه غير معهود.. والده يضحك مــن عمق قلبه، وبقية الأسرة خلعت عنها رداء الوقار المعهود أمــام عميدها.. جال بنظره في ردهات الحجرة.. لم يجد شيئا مثيــرا.. كــتم استغرابا من نفسه، وان فضحته نظرة الفضول لمعرفة السر.. أثارت ملامحه فطنة والده .. فسارعه بالقول:

-هــيا أرقــص معنا.. زادت العبارة من حجم استغرابه، وحاول أن ينهي نشوة الأطفال ورقصاتهم، إعادة لسلوك العائلة المعتاد أمام عميدها.. بادره بالكف عنهم: قلت لك ارقص معنا، لا أن تمنع أحدنا من الفرح.. أعتذر الأب قائلا :

- أخشى أن يكون الفرح على حسابك.. أجاب الجد:

- لا يـــا ولـــدي.. الفـــرح لحسابي ولحسابهم.. هيا خذ نصيبك منه.

تدخل الطفل بشقاوته المعهودة:

- انتصرنا يا أبي.. جدي قال إننا انتصرنا.. هيا ارقص معنا ، ولا تفسد علينا فرحتنا بفرح جدنا.

جلس رب الأسرة بجوار والده.. وبدأ العجوز يحكي قصة المعاناة التي عاشتها الأمة عبر العقود المتطاولة بتطاول الدهر والأزمنة.. قال:

-عـــشنا بقلـــوب مفجـــوعة تلاحق السيل الجارف لكل طمـــوح.. عـــشنا بـــنفوس تائهة تلهث وراء سراب ممعن في التضليل.. يا ولدي فقدت أبصارنا البهاء، وآذاننا أنغام النصر ، وأنوفـــنا رائحـــة العزة والشموخ حتى نسيت التعرّف عليه بين روائح العفن. يا ولدي، ما أقسى على الإنسان أن يفقد حواسه.. يا ولدي، بفقد المرء لحواسه يفقد كرامته أو قل إنسانيته.. ربما تسألني كيف؟ أقول لك: عندما تفقد حواسك بوصلتها، فلا تميّز بين الأشياء، وتغوص في براثن كل شيء، وتفقد عندئذ آدميتك

وبالتالـــي كـــرامتك.. حواسك دليل عقلك في معطيات الحياة، وبفقدها تنقلب أمورك رأسا على عقب، إذ لم تعد قادرا أن تكون إنسانا يميّز بين الخير والشر، وبين الحق والباطل.. فتمعن في الـــضلال.. وفجأة انبلج صبح بشمس باسمة، حركت أوصالي، وأخرجتني عن طوري رغم شيخوختي .. فقمت أرقص بنشوة الفـــرح التي غمرت نفسي، وطفحت على جسدي تحركه على أنغام النصر، وعادت إلى حواسي عافيتها بعد طول غياب.

تعانقـــا طويلا.. وبللت دموع الفرح خديهما، ورقصا معا من جديد.

التيـــه

لملمـــت القافلة شعثها، ونفضت بعض غبار المعركة التي خـــرجت مـــنها منهكة، كانت قد تعرضت خلالها لعصابة من اللـــصوص.. حـــاول شيخ القبيلة أن يحدد بوصلة وجهتها نحو هدفها ببطء يحاكي حركة الشيخ البطيئة بعامل السن.. دبت حالة مـــن التذمـــر بـــين رؤســـاء العشائر بالقبيلة من رتابة المسير البطـــيء.. خرج من بينهم من يدّعي معرفته بالدروب المؤدية إلى الهدف ، وأقسم باغلظ الإيمان على صدق دعواه.. صدقوه تحالفـــوا معـــه.. ســـيطروا على القافلة ، وأوكلوا مهامها إلى المدّعـــي.. جدت القافلة في السير ، ثم أناخت بإبلها في مرعى خـــصيب.. لـــم تلـــبث طويلا ،دب الخلاف بين المدّعي وبقية الرؤساء، وكثر القيل والقال ، وأرتاب بعضهم في نوايا البعض الآخر.. كلهم يدعي صلاحا لأمرها.. شردت قعدان القافلة عن مـــسارها، واتخذت لنفسها وجهات متباينة ، بعضها يبحث عن غـــيث، وبعـــضها يـــبحث عن حاجة في نفسه، لا يعرف أحد

كوامنها، ورغم ذلك بدأت ملامحها للعيان واضحة ، وان غلّفها بالمراوغة والمدارة.. الذي يكذب قد يضلل بعض الناس لبعض الــوقت، ولكن عمق الماء يكذب غاطسه، ويفضح مهارته، أمـــا الصادق فيقنع كل الناس لو بعد حين، ولا يبقى إلا المكابر والمعانـــد، فهـــو من سقط المتاع لأنه يعلم في قرارة نفسه انه كاذب ومراوغ.

لا تـــصدق مـــن يحمل أحلاما تراها وردية، ولكنها غير قابلة للتنفيذ عمليا.. هل يمكن أن تصدّق من يدّعي انه سيأتي لك بالجـــنة على ظهر حمار.. إنك إذن تأمل في العثور على شعرة سوداء في حجرة مظلمة، والشعرة ليست لها وجود أصلا!!.

من يستغل حاجتك ليسيّل لعابك، طعنك مرتين: أثار شهيتك، وحرمك النوم على أمل الحصول عليها، ثم يحقق أمله دون أملك، فتقعد ملوما محسورا.. أملك ينبغي أن يكون ضمن معطيات الواقع لا بحجم الأحلام.. لا ضير في لأحلام.. ولكن تسبقها لبنات الواقع التي ينبغي التأسيس عليها.. دون ذلك لا تسرح بخيالك بعيدا حتى لا تقـــع فريسة للقلق والاضطراب، ويدفعك إلى أحضان اللاعبين بأوتار الطموح الممعن في اللا معقول.

وصدق الوعد يحتاج إلى عاملين، ولا بديل لأحد هما عن

الآخـــر.. فـــالأول: قدرة الواعد ، والثاني: مدى صدق نيته.. العامـــل الأول يمكن رصد معطياته . أما العامل الثاني فيحتاج إلـــى تمحيص قد يغيب عن الكثيرين، رغم التجارب المرير.. فالمؤمن ينبغي ألا يلدغ من جحر مرتين، فما بالك بالملدوغ من ذات الجحر عشرات المرات.. تنازعت العشائر بروح التعصب المقيت، وانقسموا إلى صفين: أحدهما أتعض من اللدغة الأولى، والآخر خدعه الجحر بتغير مظاهره في كل مرة.. ولكن الركب لابد وأن يضمهما معا، ولا مفر.

قوافل كثيرة خدعها السراب، وضلت الطريق، والسراب يتراقص بمائه في عينيها، كلما أمعنت في التيه. فلا ارتوت، ولا رجعت عن غفلتها.. ربما ضيّعت زادها، وأفرغت قرب مائها.. فـــلا هي عادت لتصحح مسارها ، ربما لعجزها، ولا وجدت ضالتها في اللانهاية.

قـــد تتأخر قناعة العامة بالصادق.. وعندئذ لا ينفع الندم فتشيع مفاهيم الاستسلام وتكرّس ثقافة الذل والاستكانة، وينتهي الجميع إلى العدم.

تـــضورّت القافلة بالجوع، ويبست عروقها بالعطش، وســـيطر الأقـــوياء على مقدرات الضعفاء.. فما بقى غير

هـــدف أناني تمثّل في (نفسي، نفسي، ولا أسالك سواها) وتمـــثّلت القيم في حجم القدرة على السطو بمختلف أشكاله ومظاهـــره، والذي ألبس ثوب الرجولة والشجاعة، والذكاء والفهلـــوة.. ولا مكان للصدق أو الوفاء الذي أمسى وأصبح من أساطير الأولين.

البعض حاول أن ينجو بنفسه، والآخر جاهد لوقف نزيف الانهيار والدم، ليعود بالقافلة إلى جادة الصواب.. هزلت الإبل، وعجزت عن حمل ركبها المتهالك.

فـــي التيه، التقت بقافلة أخرى من بني عمومتها، أصيبت بـــنفس الـــداء.. ظنت كل واحدة أن الأخرى أفضل حالا، وأنها ستكون مغنما.. تطاحنتا.. النتيجة واحدة.

عـــندما تغـــيب النجوم عن سمائها، ويذهل العقل عما حوله، يتـــرك الأعرابـــي عيره تنطلق بالفطرة لتحط برحاله، في مواطن الغيث والكلأ.. أما هؤلاء، فقد غاب عنهم كل شيء، حتى فطرتهم.

في آخر الأفق.. هناك عند التقاء السماء بالأرض لاحت للـــضالين مفـــرزة من الخيالة.. تعلقت عيونهم بها، وأسرّ كل طـــرف أن يحرضـــها علـــى الآخر، وأن يقدم لها كل فروض الطاعة ليتحقق رجاءه.

تفحّـــصت المفـــرزة الوجـــوه، عرفت بعضها، وجهلت أكثرها.. عرفت البعض لتواصل الحبل السري معها.. ولكن في هـــذا الظرف أرادت أن تذل الجميع.. أمر سيد المفرزة الجميع بالوقوف صفا، وخاطبهم بقوله: إذا أردتم أن تصلوا إلى غايتكم، ســـلموا كل شيء.. أموالكم، سلاحكم، عقولكم.. وافق التائهون على كل مطالبه..

احتج شاب كان في آخر الركب..

ضـــجَّ المكـــان بالهمهمات، ولسان حالهم يقول: ما قيمة ســـلاحنا وأموالـــنا وعقولنا، إذا لم نصل إلى غايتنا.. فلنسلمها جميعا لننجو بأنفسنا.

اعتلـــى الـــشاب صخرة عالية قائلا: انه غريب السحنة، غـــريب اللـــسان.. ولا نأمن على أنفسنا من غدره.. أنا عقلكم، أبقوا سلاحكم وأموالكم وسوف أصل بكم إلى غاياتكم.

صـــاحت الأكثرية : انه مغامر أرعن، لا يمكن أن نقبل بجنونه..

تذكـــر الشاب قولة قريش لابنها: انه مجنون.. انتبذ بثلة من رفاقه ركنا عصيا، وأعلن التصدي والصمود..

التمـــست الكثرة العذر لنفسها وأعربت عن سخطها عن أبنائها ترضية للسيد الغريب..

صاح الشاب في قومه، قفوا على الحياد، لا أريد منكم أكثـــر مـــن ذلك، إن هزمت، تخلصتم مني، وإن انتصرت، فالنصر لكم.

تطـــاحن الجمعان، وتواردت الجحافل الداعمة للمفرزة. صمدت الفئة القليلة.. بينما تراقصت عيون الكثرة انتظارا للفرج على مقاس تفكيرها الخائب.

ذهلـــت الجحافل عن نفسها من هول الصمود، وتناثرت أشلاؤها، وعلا صراخها في ساحة المعركة.

رمقت الجحافل الكثرة بعيون راجية أن تفعل شيئا معها لتـــنقذها من ورطتها.. ولكن الكثرة الجبانة لا تريد الموت على يـــد أحد، لقد أسلمت أمرها إلى صاحب القوة الظاهرة من أجل أن تعـــيش، وقـــبلت الـــذل والمسكنة من أجل سلامتها.. فكيف تطالب بما لم تستطع عليه صبرا؟!.

التفت السيد إلى جحافله، وأمرها بالانقضاض على البقية انـــتقاما مـــن الصامدين ليفت في عضدهم.. لم يفلح في هدفه،

فــأعلن الهدنـــة.. ورغم ذلك رفضت الكثرة أن تقبل بانتصار أبـــنائها .. مـــازال فـــي نفـــسها خوف دفين تراكم في جدران عروقها، ومنع عنها التنفس بهواء نقي فواح.

لعن الله الذل كم هو قادر علي تحطيم الطموح.. ولعن الله المسكنة كم هي قادرة على كسر العزّة والشموخ.

قـــد تملك بأموال الدنيا كل متاعها، ولكنك لا تستطيع أن تملك بها صرخة حق واحدة.

المـــال يـــدفعك إلى الطغيان، ولكن يدفعك إلى الخذلان أيضا خوفا عليه.. هل رأيت في الدنيا غنيا شجاعا إلا ما نذر؟ أو هـــل رأيت فيها غنيا مهموما بمغبون؟، هكذا هي الحياة في أغلـــب أطـــوارها، وعبر تاريخها وساحاتها.. قاعدة التداعيات تقـــول: العزة تدفع إلى مزيد من العزة، والذل يدفع إلى المزيد من الذل.. وبذا تنامت العزة في نفوس الفئة القليلة، وتنامي الذل فـــي نفوس أصحابه.. استلمت العزة زمام أمرها وكبر طموحها بمعطيات واقعها المنتصر، وجرفت من أمامها عوائق الانهزام الـــذي انزوى بأهله بعيدا عن ساحة الوغى وقرار الصمود .. وطـــاردت فلول الطاغي وحجافله المنهارة ، وأوصلت مسيرة قافلتها إلى مرابع السلامة والأمان المتوّج بالنصر المبين.

الحالـــم

في ثلاثينيات القرن الماضي جاء إلى المدينة يبحث عن عمل يسد رمقه، وخلفه أخت خرساء مثله، حط به الرحال عند أحـــد البـــيوت، أُدخلت أخته للبيت وأنضم هو إلى فريق العمل الذي يجدّ آنذاك في بناء مبنى ضخم من دورين لأسرة صاحب البـــيت .. وتحوّل مع مرور الزمن من عامل أجير إلى فرد من أفـــراد الأسرة الكبيرة التي استضافته، وأصبحت أخته كإحدى بنات الأسرة في المكانة والدور.

ولكـــن الأقدار شاءت أن توافيها بالمنية، ويبقى صاحبنا وحـــيدا، وقد تشبّت بالأسرة المضيفة، وتعلّق بسيدها أكثر، فقد تخلّـــص مـــن عـــزلته بالانتـــساب إلـــيها، وبادلته كل التقدير والاحترام.. كان الطرفان في حاجة لبعضها، وهو بساعده وهي بإيوائها .. وقد وصل بالصلاحيات الممنوحة له أن يأمر وينهى أبـــناءها بإيماءاته وإشاراته، وأمره مطاع دون جدل أو تمرد، شـــعورا مـــن الأسرة بكاملها بمدى إخلاصه وتفانيه، وحرصه

على مصالحها .. كيف لا؟، وقد انتسب لها وأطلق الناس أسمها علـــيه، وقد جربته في مواقف عديدة كان فيها أشد حماسا لها، وأكثر تمسكا بحقوقها، وأكثر رعاية لاملاكها، سُلّمت له أمانات فحـــافظ عليه، وحُمّل رسائل فقام بها خير قيام، وكُلف بأعمال فنهض بها بكل مهارة. هذا الإخلاص والوفاء لا نجد له تفسيرا واضـــحاً ولا نملـــك إلا تـــساؤلات حـــول دوافعـــه، وربما الافتراضـــات هـــي الإجابات ولا شيء غير ذلك.. فهل كان إخلاصه من معيار المعاملة بالمثل أم كان تعويضاً عن ظروف العوز والفاقة التي سلخته عن محيط انتمائه العائلي؟، أم تأصل الطـــبع الحميد في نفسه ولا غير ذلك؟، ولكن هل الطبع وحده يكفـــي للوفاء؟، فهل لو انتفت الأسباب الأخرى المساعدة يصمد ويـــستمر فـــي عطائـــه طـــيلة عقود؟، فالطبع السوي قد يؤثر الانـــسحاب أنفة من سوء المعاملة مثلا، ولا يمنع من الاتصال بالأصـــل بـــل يحث على التواصل معه ولو كان مجحفا.. أكبر الظـــن أن العـــوامل الـــسابقة مجـــتمعة وجّهت مسلكه وحددت مـــساره.. أمـــا الانـــسلاخ عن محيطه فقد حاول أن يعوضه بالأمانـــي والآمـــال فقـــد عـــنت له خيالات وأوهام عبر بيديه وبهمهماتـــه عـــنها لـــسيد الأسرة، ادّعى خلالها أن قريبا له ذا منـــصب رفيع يعيش في المناطق الشرقية، وأنه في انتظار قدومه

علـــى أحـــر من الجمر، ثم أصبح لا يكف عن السؤال عن موعد حـــضوره، ويـــسأل عن ذلك كل أفراد الأسرة!!، حاولت الأسرة جاهـــدة من أجل إقناعه بخطأ تصوره وتخيلاته، ولكنه سرعان ما يغضب ويصر على أن أوهامه حقيقية وواجبة التحقيق ! ! لم تملك الأســـرة لإرضـــاء عـــواطفه وتهدئة مشاعره إلا أن تجاريه في شـــطحات خياله وأمانيه، و اتجهت إلى فكرة إقناعه بالصبر حتى يفـــرغ القـــريب مـــن مشاغله، ألم يكن ذا منصب رفيع؟! لذا فهو يحتاج إلى شهور أو ربما إلى سنين لكي يتسنى له الحضور.

لا أحد يعلم عن هذا القريب الذي ادعاه شيئا.. لا قبيلته ولا الأســـرة التـــي آنس العيش في كنفها طوال العقود التي استغرقت شبابه وكهولته!!، تُرى هل هذا ما يعرّفه علماء النفس بالتعويض؟، أم الشعور الدفين بعقدة الذنب من هجرانه للأصل؟، لعل بعُد الشقة وتقـــدم الـــسن نحـــتا في عقله الباطن ضرورة أن يجد له جذورا وفروعا كان قد تجاهلها في عنفوان شبابه.

ولكـــن الأصل لا يملك له حينذاك ما يبقيه متصلا، ولا هو عبّر عن تقصير بحقه.. يبدو أن الأمر تمثل في أن الطرفين تنازلا عن حقهما تجاه بعضهما، فاتجه كل منهما إلى حال سبيله.

مـــرَّت الأيـــام تلـــو الأيام وهو على إصراره وهم على

مجاملتهم.. أنهكه الانتظار فانتابه المرض، وأنتظر في مرضه مقـــدم القريب ولكن دون جدوى، عاش مع الأسرة أربعين سنة بحلوها ومرها.. قاسم الأسرة وقاسمته أيام الفرح وأيام الحزن، وحمـــل هموم كبيرها وصغيرها وكأنه من رحم بطونها، حتى اختلط على الكثير أمر انتمائه العائلي والقبلي.

وافته المنية عن عمر ناهز الخامسة والسبعين عاما دون أن يحقق الحلم الذي عنّ له وقد كان بعيدا.. بعيدا عن واقعة وحقيقته.

ويحـــق لنا أن نسأل: هل الوفاء للقيم والمجردات أعمق مـــن الوفاء تجاه الذوات والمحسوسات؟، يبدو للوهلة الأولى أن الأمـــر كذلك.. ونعترف أننا لا نملك وهلة ثانية نستدرك بها ما ندّعـــي، وإلا فما الذي يدفع صاحبنا إلى الوفاء إلى صلة الرحم حتى بعد انقطاعها أكثر من أربعين سنة وإن تمثّلت في شخوص لا يعرف حتى أهم ملامحها وأبرز خصائصها؟!.

رحمه الله.. رحمة واسعة، لقد عاش بالأمل ومات على أمل ولو كان خيطه واهيا ووهميا!!.

السبيلان

كانا رفيقين منذ الصبا، جمعتهما التلميذة في المرحلة الإعدادية وما بعدها، لقد تقاسما هموم الواجبات و الامتحانات وخوف الرسوب و فرح النجاح.. تفضّلت عليهما الهموم، فوحّدت مشاعرهما الصادقة نحو بعضهما.. امتدت العلاقة بينهما لتصل إلى عائلتيهما.. تخرجا، دخلا معترك الحياة معاً، عملا في التدريس.. لكن سليمان لم يقنع بمرتبه الضئيل، فركب موجة اعتقد أن بإمكانها أن توصله إلى شاطئ الحياة المترفة و على مدى العمر، أغرى صاحبه عبد الرحمن بركوبها.

لم يتفقا على الفكرة، قال سليمان:

– لو بقينا على سطح هذا الماء الراكد لن نصل أبدا.

عبد الرحمن :

– ولكن الموج سيغرقنا في لجة بحره المتلاطم

– لقد فاز باللذة الجسور.

- لا بارك الله في الحرام و الخطر.

- أنت هكذا دائماً تبرر الفسولة بالحرام و الخطر.

- أتعتبر العقلانية فسولة.

- هذا فراق بيني و بينك.....

تلّـــون سليمان بمختلف ألوان الطيف، ووصل إلى مراكز مهمة في إدارات الدولة، و بدأ الجميع يشير إليه بالبنان.. أطلع علـــى القانون و فتش عن ثغراته، وحرّف فيه كلمتين: الأولى تحولّت عنده من (يُمنع) إلى (يُمنح)، و الثانية تحوّلت عنده مـــن (عامة) إلى (خاصة) و بذا أصبحت القوانين واللوائح مـــريحة لمزاجه ومحققة لرغباته.. تملّك السيارات و المزارع والـــشقق العامة أكثر من مرة وفي أكثر من مكان، وباعها أكثر مـــن مرة أيضاً... لاحت عليه مظاهر الأبهة و الصولة.. ركب آخر الصيحات في عالم السيارات و سكن في قصر، وسبح في حوضـــه، و استمتع بجمال نافورته وحدائقه.. وخلال كل ذلك أشـــاح بوجهه عن صديقه القديم، لماذا يستمر في علاقته تلك، إنهـــا تذكـــره بـــسنوات العوز و الحرمان.. لقد وجد الأصدقاء المناســـبين، يملأ ون أسماعه بعبارات المديح و عينيه بمغريات الحياة وزخرفها.

مضت السنوات تجر أثقالها بالأيام و الشهور، تمنح سليمان عسلاً مسموماً، وعبد الرحمن خبزاً جافاً ولكنه آمن.. سليمان يسخر من بله صديقه و الأخير يعتصر قلبه الألم والحسرة عليه.. غيّرت الموجة من اتجاهها، و أصبحت تجر بصاحبها إلى الأعماق.. المتاعب بدأت تلوح في الأفق.. البحر يزمجر، موجه يكسر بعضه بعضاً، و سليمان كعود تبن يتقاذفه أليم و لا سبيل.. أكمل البحر مهمته فأصبح سليمان سجيناً وغابت عنه عبارات المديح وزخارف الحياة.. تخلّى عنه الجميع، لم يعد لأحد حاجة لخدماته.. ولسان حالهم يقول: فليذهب إلى الجحيم، انه لا يملك علينا فضلاً، لقد منحناه رقصاً و طرباً نظير ما أخذناه، وعليه أن يتحمل تبعات ما آل إليه، ثم لن نجرؤ على الاعتراف بعلاقتنا به، أن مصيرنا سيكون مثله حينئذ.. إن علاقتهم به كعلاقة ركاب حافلة وصلت محطتها.

سمع عبد الرحمن بما حدث، وبدأ يواجه صراعاً مع نفسه، هل يزور صديقه القديم أم يتركه وحيداً.

حاور نفسه:

- إنه لم يسمع لحديث العقل، واتهمني بالفسولة، إذن عليه أن يدفع الثمن.

- ولكن ألم يكن لصداقته يوماً حق؟.
- هو الذي تنازل عنها.
- أهذا وقت للمحاسبة و اللوم؟.
- ماذا أستطيع أن أفعل؟.
- قم بزيارته في سجنه و أشدد من أزره.
- ربمـــا يعتبـــرها شماتة، ثم لن أملك نفسي أمامه من البكاء، وبذلك أزيد الطين بلة.
- إذاً، يمكن أن تقف مع أسرته في هذا الظرف الصعب.
- لا يذكرنـــي أحد منها، لقد مضى على انقطاع علاقتنا ما يزيد عن خمسة عشر عاماً.
- لا يهم هل يعرفونك أو لا، المهم الموقف.
- جمـــع شعث شمله وذهب إلى القصر.. رن الجرس، خرج شاب، سأله: أنت ابن سليمان؟.
- لا . أتقصد صاحب القصر السابق؟.
- نعم... أسرة سليمان.

- استأجرت شقة في شارع البلدية.
- أخذ العنوان: أطرق الباب مرات... خرج الجار.
- لا أحد هنا.
- أين ذهبوا؟

زوجة سليمان ذهبت لبيت أهلها، ولحقت بها ابنتها مروة، وابـــنه مروان في السجن على ذمة قضية متاجرة بالممنوعات، وابنه لؤي يعالج بمستشفى الأمراض النفسية منذ أكثر من سنة.

دسَّ عبد الرحمن وجهه بين كفيه، و استغرق في البكاء، لم تعد رجلاه قادرتين على حمله، جلس على عتبة السلم.. أخذه الجار إلى الداخل، و بدأ يحدثه عما يجهله، قال: لقد جاء لعائلة سليمان أحد التجار يطالب بدين له مقابل مواد بناء لقصره..

- ألم يبع القصر؟ لماذا لم يسدد الدين من ثمنه؟
- لـــم يقبض سليمان الثمن، لقد ذهب بكامله للمصرف المقرض، ومازال في ذمة سليمان بقية.
- أين ذهب بكل هذه الأموال؟
- قيل أنه كان يجوب دول العالم و مواخيره.

- لا تكمل، عرفت السبب.
- قيل أيضاً، انه كان يدفع لحاملي المباخر بسخاء.
- من ماله؟
- ومن مال الدولة أيضاً.

عاد عبد الرحمن يجر رجليه جراً، مهموماً، مصدوماً..

ألتف أبناؤه حوله: المهندس سعيد، والمحامي علي، والصيدلي عبدالرؤوف، يسألونه بلهفة عما حدث.

روى ما حدث لصديق صباه.. حدثهم عن علاقته القديمة به من ألفها إلى يائها.. ثم قال: ثم اتخذ كل منا سبيلاً، وهذه نتائج السبيلين أمامكم و لا مزيد من الدروس لمن اعتبر..

الطيب

الحــاج الطــيّب في الخمسين من العمر، تبدو عليه ســمات الــوقار والهيبة، دائم الانشراح، وعلى وجهه بشائر الطمأنيــنة، لا تعلم مصدرها إلا إذا توغلت في أعماق نفسه، وأنّــى لك ذلك، فهو كثير الصمت، لا يتحدث إلا لضرورة، ولا يردد في أغلب حديثه غير أربع عبارات: الحمد الله.. ما قوة إلا بالله . سبحان الله. ما شاء الله . فالأولى : عند سؤالك عــن أحــواله . والثانية : عند الحديث عن مصاعب الحياة ومــشاغلها . والثالــثة : عــند ســماعه لموعظة أو حكمة. والــرابعة : تعبيــرا عــن إعجاب وإكبار لمعجزة أو موقف إنــساني نبيل . أما حديث نفسه فهو ذكر وتسبيح لا يخرجه منه إلا من يقحم عليه خلوته الروحية الدائمة.. يشارك الجميع فــي أفراحهم واتراحهم، ولكن بنفس الوجه الطلق، مما أثار ذلــك حفيظة أحدهم فسأله: لا نراك إلا بهذه السمة ! فأجاب: وعلى ماذا يابني؟ من يفرح قد يحزن والعكس أيضا، ومادام

الأمـــر كذلك فلا يجدي التقلّب .. إننا ضيوف في هذه الدنيا، ولا ينبغي للضيف أن يتصرّف إلا هكذا!

لـــه ثلاثـــة عناوين، الأول: في المسجد في أوقات الصلاة، والثانـــي: في المنزل بعد صلاة العشاء ، والثالث: في ورشته بقية ســـاعات الـــنهار، يستثني منها ما قد يحضر من مناسبات لمعارفه وأقاربه حيث يتواصل معهم بين صلاتي المغرب والعشاء.

ذات يـــوم، وبينما هو منهمك في منجرته المتواضعة، دخـــل عليه أحد جيرانه مهرولا فزعاً: يا حاج.. يا حاج.. ابنك الصغير صدمته سيارة، ورفعوه إلى المستشفى..

- لا حول ولا قوة إلا بالله.

مـــسح بأكمام قميصه عرق جبينه وما علق به من غبار نجارته.. وضع أدوات صناعته، وبهدوئه المعهود استطرد..

-هـــيا بـــنا.. دخل المستشفى.. سأل، أشاروا إلى حجرة العناية الفائقة.. نظر من خلال النافذة، فوجد ابنه طريح الفراش بلا حراك ومحاط بمجموعة معدات طبية تعمل بكامل طاقتها.. أطرق قليلاً.. مر من أمامه أحد الأطباء، سأله، فأجاب:

- الحالـــة لم تحدد بعد.. نأمل أن يكون بخير.. خرج، توجه

إلـــى مركـــز الـــشرطة، وجد شاباً مرتبكاً ينتظر، دخل الحجرة المجاورة، وجد ضابطاً مناوباً.

- السلام عليكم.

- وعليكم السلام، تفضّل.

- عفواً.. ما الذي جاء بهذا الشاب؟

- حادث مرور، لقد صدم طفلاً بسيارته منذ قليل، حمله إلى المستشفى، وسلّم نفسه.

- أنـــا والـــد الطفل، أريد أن أتنازل عن حقي، أرجو أن تخلي سـبيله.. تفرّس الضابط في وجهه مستغرباً، شك في الأمر، ربما لا يكون أباه.. فاستدرك قائلاً: أعطني ما يثبت هويتك.

قدم الحاج بطاقته الشخصية.

- وكيف حال الطفل؟

- في العناية المركزة.

- رفـــع الضابط حاجبيه قائلا: ولكن يا حاج ألا تنتظر حتى تظهر نتائج الفحوصات، ثم تقرر ما تريد؟.

- مهما كان الأمر، فحبس الشاب لا يقدم ولا يؤخر.

- هل تعرف الشاب أو عائلته؟.

- لا.

انكمش الضابط في كرسيه، وبدأت الهواجس الأمنية تجول في رأسه..

ربما يكون الرجل معتوها، أو ربما له غايات بعيدة لم يصل إلى استنتاجها .. خرج من المكتب يبحث عن أحد يجد له إجابة أو تعليلاً، إنه صاحب خبرة طويلة في هذا المجال، لكنه لم يمر بمثل هذا الموقف الغريب .. وفي مدخل المركز وجد جاره بانتظاره، سأله عن قواه العقلية، وعن سيرته، أجابه بما يفيد حسن ظنه، أنجز الإجراء اللازم ، وأطلق سراح الشاب.

في المساء اجتمع أقارب الطيّب وأصدقاؤه يتدارسون الوضع والسبل التي ينبغي اتباعها تجاه أهل الشاب، وتجاه الطفل المصاب.. حدث هرج ومرج.. تحوّل إلى انتقادات ولوم متبادل، وطفحت الحساسيات الكامنة في صدورهم تجاه بعضهم، والطيّب بينهم في عالم آخر وحيداً يتلو القرآن، ويسبح الله.

عند الفجر، أدّى صلاته، واتجه إلى منجرته ينجز ما تركه دون إتمام، ومع بداية الدوام الرسمي، اتجه إلى

المستشفى، نظر من النافذة، حرّك رأسه يمنة ويسرة باحثاً عن ابنه، لم يجده، سأل أحد الممرضين.. أجابه ضاحكاً:

- ولــدك يـــا عمي الحاج يلعب في حجرة الممرضات، وهـــو فـــي انتظارك للخروج.. ضم ابنه إلى صدره وطبع قبلة على جبينه .. وعاد به.

في المساء كان الأقارب قد تدارسوا خطط الكيد والكيد المـــضاد من أجل أن ينفذ كل طرف رأيه على حساب رأي الطرف الأخر.. بدأ الهرج والمرج يعود من جديد في منزل الطيّب الذي لم يعهد ذلك من قبل، وفي ذروة مشاحناتهم دخل الطفل عليهم بالشاي.. أسقط في أيديهم، تبادلوا النظرات، لقد عبـــرت عما بداخلهم. من أي معدن هذا الرجل، انه لا يعير أي اهتمام لأي شيء!.. حتى في مصابه يلتزم السكينة!! هل جُـــرّد من الإحساس؟، أم هو عن طينة أخرى؟ انفجر أحدهم بـــضحكة ســـخرت مـــن تواجدهم، بل من تطاحنهم على لا شـــيء.. عـــادوا إدراجهـــم إلى حيث مشاغل الدنيا، وتقلّب أمـــزجتهم تـــبعاً لأقدارها.. وفي نفوسهم لهذا الرجل المفعم بالإيمـــان إكـــبار رغم أنوفهم، لقد تمثل الطيّب بحكمة الإمام الشافعي (رحمه الله) في قوله:

دع الأيـــام تفعـــل مـــا تـــشاء .... وطب نفساً إذا حكم القضاء

ولا تجــزع لحادثــة ا الليالـــي .... فمـــا لحـــوادث الدنـــيا بقـــاء

ربمـــا لم يسمع بما قاله الإمام، ولكن الإيمان جمع بينهما رغم مسافة الزمان والمكان..

المبروك

في أواخر سنة 1988، قرر المبروك، ذاك الموظف البسيط، أن يسافر بسيارته العتيقة إلى دولة مجاورة بهدف صيانتها، أعد عدته، وركب محروسته، وتوكّل بها إلى حيث يأمل أن يجدّد لها عمرها، ويصقل عودها المتآكل.. وفي بلدة صغيرة داخل حدود الدولة المجاورة، أرهقه وأضناه سيرها البطيء، وأضواؤها الخافتة.. فرأى أن يبحث عن فندق متواضع يمضي فيه ليلته، ويستريح من عناء قيادتها، لسويعات.. سأل أحد مواطني تلك البلدة، فأجابه بأسلوب بارع: أنت ضيفنا، ولا ينبغي أن نسمح لك بالمبيت في فندق.. تفضّل معي في منزلي.. أدخل سيارته في مرآب صغير، وأُدُخل إلى منزل المضيف.. قدم إليه العشاء، وأعد له فراشا.. أحضر من سيارته عباءته ليلتحف بها من برد الشتاء.. قبيل الفجر، دبّر المضيف مكيدة، لقد أغراه الشيطان بأن يتخلّص من ضيفه، ليستحوذ على أمواله وسيارته.. إنه غريب، ولن يجد من يقتفى

أثـــره، ويبحث عنه، ولم يعلم أحد بمكانه.. وسره سيمكث دفينا إلى آخر الدهر !!، إنه سيحصل على المال، ويبنى به (مجدا) ويعلـــو به عن غيره .. لا يهم شكل العلو، ولو كان على مزبلة الآثـــام والخـــسة.. الشيطان لا يجد طريقا سالكا إلاّ في النفوس الـــصغيرة، والمـــتهالكة علـــى ألوان اللذة.. فيجري في عروق أجـــسامها، ويغذي أحلامها بما وطنت عليه أطماعها الشريرة.. أتفق مع زوجته وقريب لهما على قتله.. جاءوا خلسة، وأعملوا فأســـهم وسكاكينهم في العباءة ومن في جوفها.. أزاحوا العباءة، فـــوجد المضيف ابنه مضرجا بدمائه.. أسقط في أيديهم لقد أرتد كـــيدهم فـــي نحورهم.. سارعوا إلى مركز الشرطة ليبلغوه أن ضيفا قتل ابنهم، ولاذ بالفرار.. جاءت الشرطة.. لمحها الضيف مـــن بعيد.. حضر مسرعا ليستطلع الأمر، وليتمكن من إخراج ســـيارته مـــن الذين أساءوا معاملته.. في مكتب التحقيق سرد الـــضيف أحـــداث ليلـــته بالتفـــصيل.. قال: أنصرف المضيف والتحفت بعباءتي.. وبعد قليل دخل ابن المضيف ثملا، فوجدني علـــى فراشـــه.. ضربني، ونهرني، وأفتك عباءتي، وطردني خـــارج المنـــزل.. حاولت أن أخرج سيارتي وأذهب إلى حال سبيلي، ولكن باب المرآب مقفل، فآثرت أن أنتظر حتى الصباح تحـــت الأشـــجار حتـــى يـــستيقظ صاحب المنزل، ويفتح باب

المرآب.. واعتبرت أن المشكلة في الخمر الذي احتساه الابن.. ثـــم أكمل المضيف وشريكاه في الجريمة بقية القصة.. اعترفوا أنهـــم قتلوا النائم في الفراش، والملتحف بالعباءة لاعتقادهم أنه فريـــستهم.. لملمـــت الشرطة شعث المسافر، واعتذرت له عما حـــدث، وأرجعته إلى بلده.. مر على صديقه بمصراتة، وتطوّع الـــصديق بولـــيمة دعـــا إليها أقاربه وأصدقاءه احتفالا بسلامة المغـــدور بـــه.. وتناقلوا القصة بينهم، فكانت الموعظة والعبرة لمن ألقى السمع وهو شهيد.

المـــهاجر

فـــي أســـرة فقيـــرة معدمة عاش، وفى كوخ من الصفيح المهترىء ترعرع، وبأسمال بالية تدثر.. يصارع الجوع والفاقة طوال اليوم، والبرد والصقيع في ليال الشتاء، والحر والقيظ في أيـــام الـــصيف.. وفى كل أحواله ينعم بروح مرحة، وابتسامة هادئـــة تنم عن صبر وأمل لا يفارقانه رغم كل شيء.. يقاسمه رفاقه كسيرات الخبز التي يخرجونها من بيوتهم من حين لآخر، ويرفض من البعض عندما يستشعر المنة في لقمتهم، وإن كانت عيناه لا تغادرانها، فتفضح ما في نفسه من هوى وما تمليه عليه معدته الخاوية من دعوة للقبول.

توقَّـــف بـــه قطار الدراسة في السنة الثالثة من المرحلة الابتدائـــية، ولـــم يـــستطع أن يواصل بقميصه البالي وبقدميه الحافيتـــين، ولـــم يستطع أن يواصل بأب مقعد في الكوخ، وبأم تقضي معظم وقتها مشغولة بخدمة الجيران وبيوتهم.. لم يعرفه الـــناس إلا من خلال أمه، فكانوا يدعونه باسمها، ولم يجد في

أول الأمر حرجا، ولكنه بدأ يتبرّم من ذلك ويعلن عنه، والناس في اعتراضه لم تعره كبير الاهتمام.

دارت الأرض، وشكلت أيامها وسنونها ملامح شخصيته جــسديا ونفــسيا وتــرك الــزمن بصماته على أسلوب تفكيره وتصرفاته.

فقد أمه بمرض السل الذي نازعه صدرها الحاني، ولحق أبوه بركبها عجزا عن مواصلة المسيرة بدونها، وهجر صاحبنا الكوخ، وغاب عن الحي ومن فيه.

هجــر الكوخ الذي زاد من حدة لسعات برد الشتاء، ولفحات حر الصيف، ولم يمنع عنه قطرات المطر، بل جمعها له في سواق لينزلها عليه مخضبة بالطين والتراب من ثقوبه وشروخه.

غــاب عــن الحي الذي شهد فيه طفولة معذبة محرومة، شهد فيه شقاء والدته من أجل لقيمات تجمعها من هذا البيت أو ذاك لتسد به رمقه ورمق والده القعيد.

لــمَ لا يهاجر؟ لعله ينسى ماضيه الحزين، ويفتح صفحة جديدة مع الحياة ويطلب أمنا من صروف النوائب، وصلحا مع غوائل الزمن.

كانت هجرته إلى الشرق، وطالت غيبته عن أهل الحي أو قـــل طالت غيبة أهل الحي عن ذاكرته.. وإن كان يذكرهم من حين لآخر في مستقره الجديد وأمنه وصلحه الجديدين.. أشتغل عـــاملا فـــي مجال البناء ثم تحوَّل إلى أسطى وبدأت الأيام تمـــنحه مـــزيدًا مـــن الأمن والصلح، وتكفّر عن عذاباتها له وكأنها تعتذر عما بدر منها في سالف الأوقات.. وإذ بصاحبنا رجـــل من رجال المقاولات يشار إليه بالبنان ويركب سيارة فارهة يحيط به عماله وموظفوه في أثناء عمله وترحاله وهو يتباهـــى بمظهره ويتزين بشيب عارضيه الذي منحه قدرا لا بـــأس به من الوقار والهيبة.. كان في قرارة نفسه يهزأ بهذه الأبهة ويهزأ بالمحيطين به، يهزأ بها لأنها لم تسعفه في أيام العوز والفاقة، ويهزأ بهم لأنهم أعطوه مالا يملك له جلبا أو دفعـــا، وإنما هي مقادير يُقاد إليها الناس فيُعطى هذا ويُحرم ذاك ولله في خلقه وتدبيره شؤون..

عرف صاحبنا قيم الحياة ومآسيها، وطبائع السواد الأعظم من الناس فقد كانت كقول أبي الطيب المتنبي:

فـلا مجـد في الدنـيا لمـن قـل ❖ ولا مال في الدنيا لمن قل مجده

يُعـــاد إلـــى ذاكرته طيف الماضي الحزين، ويذكر رفاق

اللعـــب والطفـــولة، وترد على خواطره مواقف أهل الحي بكل تفاصـــيلها.. من عطف عليه، ومن نهره، ومن أساء الأدب إليه لعـــوزه، ومن أهان أمه وحقّرها.. فتختلط المشاعر والأحاسيس في صدره وتتزاحم الذكريات في رأسه، وتكررت هذه الوقفات مع الماضي كلما حدث له ما يرجعه إليها، أو خلا بنفسه.

تجمَّعـــت فكـــرة في عقله وجدها شافية لحاجته ومريحة لنفـــسه المـــرهقة من عذابات الماضي، فعزم على زيارة الحي القـــديم والدخول فيه بحاشيته وخيلائه.. لير ماذا يكون رد فعل جيرانه القدامى؟، وكيف سيتصرفون معه الآن؟، هل يستمرون في غلظتهم، أم يتواضعون لموكبه المهيب ويحنون له الرؤوس لما له من أبهة وخيلاء ؟.

هل يتظاهرون بنسيان الماضي فيتعاملون مع الواقع ؟، أو يصرون عليه ويعيدونه من جديد إلى المربع الأول ؟.

هذه ترجع إلى حالة كل واحد منهم الآن.. هكذا فكَّر وقدر.

حـــزم أمتعـــته وجهّـــز موكبه، وأضفى عليه مزيدا من الفخامة والأبهة، وتوجه إلى مسقط رأسه، وعند وصوله للمدينة وجـــدها غير ما كانت عليه وفتش عن الحي وسأل عنه بعض المارة.. دخل شوارع مرصوفة فسيحة كانت أزقة ترابية قذرة،

لم يعثر عن ضالته، فقد تغيرت معالم المباني وتحولت أراضي الفضاء إلى مساكن ومحلات تجارية تفرّس في الوجوه، ثم وقف عـــند مبنى قديم يعرفه تماما كان لأحد أعيان الحي.. نزل من موكـــبه واتجـــه نحو شيخ يجلس أمامه، أنه أحد رجال الحي، يعرفه تماما.. سلم عليه وتفرّس الشيخ في وجهه قليلا ورجعت بـــه الذاكرة إلى الماضي، وهتف: ولد برنية ؟!، أهلا وسهلا.. وينك وين ديارك؟، نسيت اللي ربوك..؟.

كانت هذه أول علامات الطالع السيئ الذي كان يخشاه.. اســـم أمـــه مـــا يزال يلاحقه، ونظراتهم مازالت تحمل التحقير لشخصه.. ماذا يفعل أكثر مما فعل؟.

فلـــم يشفع له الموكب المهيب عند الشيخ.. كيف نسي القـــول المأثـــور ((مـــن عرفك صغيرا لا يقرّك كبيرا ومن يعرفك ذليلا لا يقرّك عزيزا))؟، هذه سلوكيات ومفاهيم كل البشر وفي أي أرض ما باله يسعى إلى تغييرها؟، فليبق بين أتـــباعه وخدمـــه، فهم فقط الذين يعرفون قدره ومكانته الآن وليـــبق هؤلاء على جهلهم بما مضى.. ما الذي جاء به لمثل هذه المواقف الحزينة ؟ تفضّل به الشيخ وطلب له ولحاشيته الـــشاي، وانهـــال عليه بسيل من الأسئلة كادت أن تبوح في

صياغتها بكامل سره المكتوم عن حاشيته، ذلك السر الذي لا حيلة له فيه.. حاول أن يغير مجرى الحديث، ولكن الشيخ يصر من جديد على إعادة السؤال تلو السؤال وفى إلحاح عجيب.. ثم ختم الشيخ المأساة بسؤال: لمن هذه السيارة يا ولد برنية؟، تلعثم.. بما يجيب ؟.

أيقول الحقيقة والتي يصعب تصديقها من الشيخ؟، أو يكذب فيصدم رفاقه؟.

سكت برهة ثم وجد أنه لا سبيل للتخلص من سيل الأسئلة إلا بتوجيه سيل معاكس يشغل هذا الشيخ ويذهله عما يريد أن يصل إليه وعن نفسه أيضاً.

فسارع بأسئلته، كيف الأولاد؟، وكيف حال جارك الحاج عبد الله؟ وين عمي بشير؟..

توقف الشيخ والتزم الصمت، بل أصيب بالذهول فقد كان السؤال الأول أصعبها وأشدها وطأة على نفسه.

كان الشيخ دائم الشتم والقدح في أولاده، يلعنهم عند جلسائه، بمناسبة وبغيرها، فما بالك وقد وجد من يسأل عنهم ويريد أن يعرف، ليجيبه وبالتفصيل الممل عن (عمايل) كل واحد منهم.

أجــاب الــشيخ: كبيــرهم الذى علمهم السحر تزوج من طليانية وهاجر معها.. الله لا ترده، رفض نصيحتى، ويا خسارة مــا علمّت فيه، والثاني سلمته دكان طويل عريض، فلقه وقاعد يدور، والثالث يكيّل في الشوارع لا خدمة ولا قدمة.

واســتمر فــي حديثه، ينتهي من أحدهم ليرجع إلى سيرة الآخــر، وولــد برنية يستمع في استرخاء وقد فك قيده وتنفس الــصعداء، وقــد أعد نفسه لسيل آخر من الأسئلة إذ لعل الشيخ يــصحو مــن غفلته ويذهب عنه ذهوله فيلكمه بها وقد قرر أن يغادر الحي مسرعا قبل أن يحيط به الآخرون ويتولون بقية ما نسيه الشيخ أو غاب عنه.

أمل التعساء

جمعـــه ظــرف مـــا بصديق قديم، لم يره منذ أكثر من عشرين سنة، نالت منهما الكثير من نضارة الشباب، ونالا منها خبــرة الحـــياة وتجارب العمر، قلت: نالت منهما حتى صعُب عليهما التعارف. لما رسمته فيهما السنون من ملامح، ونالا منها مـــا ســـرداه على بعضهما من قصص وأحداث مرت عليهما.. أســـتمر حديثهما ساعات وساعات، وتذكرا خلالها شقاوة الصبا وأحـــلام الطفولة، وتخلل حديثهما شوط من الحزن وشوط من الفـــرج، شوط من الأسف وشوط من الأمل.. كانت الأيام قاسية على الضيف في طفولته، وقاسية عليه في كهولته.. أخذ بناصية الحديث، وبدأ يسترسل في حكايته مع الدنيا.. في ثنايا العبارات همهمات ونهات أدغمت الكلمات.. وتقطّع الصوت بنبرات تعلو وتنخفض بحجم الهم الجاثم على صدره لحظتها، كانت الأحداث خلـــيطاً مـــن الخير والشر والعطاء والمنع، والرحمة والقسوة، شارك في صنع مآسيها، وقُدر عليه بعضها بفعل الآخرين.. هل

ظـــن لحظـــتها أنه أمام قسيس ليمنحه صكا للغفران؟!، أم كان اعترافه تنفسيا عن حالة الكبت، وقد آثر أن يبثها لمن كان بعيداً عنه في سكناه، فيحمل معه السر ولا يتأتى له البوح به إلى من يعنيه الأمر .. كانت مآسيه جملة من العوز والمرض والسجن.. في عتمة الحزن تظهر ابتسامة غامضة لا تعرف سرها، أكانت تعبيراً عن الندم؟، أم كانت تعبيراً عن السخرية مما فعل أو عما واجهه من ردات فعل؟.

حـــصل علـــى دبلوم في التدريس، والتحق بمدرسة في بلدته.. تزوّج وأنجب خمس بنات وابنا وحيدا.. لم يواكب راتبه حجم إنفاقه على أسرته وحجم مطالبها المتزايدة.. ازدادت وطأة الـــدين.. ترك الوظيفة، وعمل سائقاً على شاحنة لأحد أقربائه.. تحـــسّن وضعه، اعتقد أن الدنيا منحته صلحاً لكنه قابل الصلح بالنكران.. انغمس في ملذاته وتجوّل في أصقاع أوربا طلبا لها.. وبـــدأت رحلة المعاصي والزلل المتراكم تنحدر به إلى مهاوي اللاقـــرار.. ساد اعتقاد في نفسه وملأ عليه عقله وجوانحه، بأن المال انهال عليه لفطنته وذكائه وعلى علم عنده، وأن لن يعود إلـــى زمـــن الحرمان، فازداد تبذيره نظير المتوقع تحصيله في مقـــبل الأيـــام.. لكـــن الظروف تكالبت عليه فعضته بنوائبها..

وتحـّـــول الأمل فيها إلى كابوس.. أثقل المرض كاهله، وأعاده إلـــى خانة الصفر من جديد.. مارس ألواناً من الحيل، لعل ذلك يجـــدي نفعـــاً، وتواصل حلم نهاره بحلم ليله، والنتيجة محاكم وســـجون.. ولم يسبق السيف العدل.. ألم تلقنه الحياة درسا في العوز والفاقة من قبل؟!. ألم تخبره بحقيقة أيامها وتقلبها؟!، إذن درســـها ســـبق امتحانها.. حسبت عليه أنفاسه، وأحصت عليه خطواته، وأشهدت عليه جوارحه.. ثم صرعته في أتونها، وكان قدرا فلا مناص ولا مفر..

أرهقـــه الحـــديث الثقيل، أسند ظهره إلى الحائط، وباح بخلجات نفسه في صيغة سؤال:

- هل الموت أرحم؟.

- سؤالك يعبّر عن اليأس ؟.

- ربما يعبّر عن الأمل؟.

- هل كان يوما في الموت أمل؟.

- لا ..لا أرجو الأمل لنفسي، بل لأسرتي..

- كيف؟!.

- أعـــرف أســـرة فقيرة، أغدق الجيران والأقارب عليها الصدقات والخدمات .

- وما الجديد في الأمر؟!.

- الجديد في الأمر، أن ذلك حدث بعد وفاة أبيها.. كان الناس قبل ذلك يعتبرونها في غير حاجة، نظراً لوجود عائلها!!، ابتسما بامتعاض، وسخرا من ضحالة تفكير الكثيرين..

وفي طريق العودة إلى بلدته، اصطدمت سيارة الأجرة التي يـــستقلها بشاحنة أودت بحياته مع بقية الركاب.. تناهى الخبر إلى صـــديقه، ذهب إلى العزاء، وقدم للأسرة المنكوبة إعانة ، فأمسى أحد الذين سخر بابتسامته على ضحالة تفكيرهم!!.

صدقة أم وليمة ؟

دعاني أحد الأصدقاء إلى وجبة عشاء، سألته:

- ما المناسبة؟، قال:

- صـــدقة على حياة الشيباني.. في الموعد، وجدت السرادق يغص بالمدعوين وقد تراصوا في دوائر، واللحم والبازين يهرســـان بـــين الأصابع والأسنان، والمرق المدهّن يسيل على لحاهم وبين أصابعهم، وعلب المشروبات الغازية بين مفـــرغة فـــي البطون وأخرى تنتظر، والعوّالة يهرولون بالـــصحون بعـــضها جاهز للانقضاض والآخر منبوش، وبقايـــا طعـــام ودهـــون متناثرة على الملابس والفرش.. أدخلـــت رأسي بين الرؤوس وقلت (يا قطاع الروس).. أكلـــت مـــا فيه النصيب، بعد أن رش بعضنا رفاق نضاله بالطبيخ المتطاير بين ثنايا الرفس والعفش وأصابعنا.. جاء صـــبي بالإبـــريق لتنظيف ما بقي عالقاً بالأصابع واللغمة رغم اللحس والمص، وبعد تبادل التنخم والتمخّط والبصق،

مــسحنا أيديـــنا بالمناشــف المبللة بعرق الكفاح والملّغمة بلـــزوجة اللغــم المناضلة (وكأنك يا بوزيد ما غزيت)، جاءونـــي بالمربربة أسكبتها في جوفي على عجل، وقمت أبحـــث عـــن (المجاهــد الأكبر) صاحب العملة أقصد صـــاحب الدعـــوة وســـط الزحام.. وجدته يراقب باهتمام الدوائر المتآمرة على الاقتصاد الوطني ليدعمها بمزيد من الطلـــبات ويعـــزز جبهة البطون المدلاة للنهم والامتلاء، لتـــتحول إلـــى قـــنابل ومخازن لذخيرة الانفجار بالضغط والسكري.. المسكين يخاف الهزيمة فلو نقص قرن فلفل أو رفاس بازين عن أحد المناضلين لن ينجو من اللعن والسب والمحاكمة الفورية في ساحة الوغى أقصد مرابيع القرمة.. ويبقى عاره أمام الأشاوس كبيرا.. قلت له:

- أريد أن أتطفّل، هل تسمح لي؟. قال:

- تفضّل.. هذا من عوايدك.. قلت

- بالله عليك كم كلفتك هذه الحفلة؟ قال:

- خلّيها في سرك، اللي صار، صار.. قلت:

- لم تقل لي شيئاً حتى أبقيه في سري!! قال:

- تجـــاوزت الألفـــين وخمسمائة دينار، وإن شاء الله الأجر حاصل.. قلت:

- زعم؟، قال:

- شنو عندك شك؟!. وبما أنني أملك رصيداً من المصارحة معه، قلت:

- تو أنت بها الحفلة نويت وجه ربي؟!، قال:

- شن تقصد؟، أمال عليش أنادي فيكم؟، قلت:

- أنـــا وكـــل الحاضرين دعوتهم لصداقتهم أو قرابتهم لك.. وليس لأي سبب آخر، ولم أجد فقيراً إلا اللي حاصل فيه وبالـــسيف عليك، فالصدقة يا مناضل يجب أن تنفق على المحتاجـــين حتى ولو لم تعرفهم شخصياً.. وأنا أعتبر ما أكلته كوليمة أو هدية، أشكرك عليها.. قال بانفعال:

- لا.. أنا نيتي صدقة.. قلت:

- قل ما تشاء، ولكن لو فتشنا عن مكنونات صدرك لاكتشفنا أنهـــا للمجاملة، ولا أريد أن ابتعد أكثر لأقول إنها للرياء والطنطنة.. قال:

- ماذا أفعل إذن؟، قلت:

- لو أردتها صدقة فعلاً وذات أجر عظيم لقسّمت هذا المبلغ على أظرف مغلقة يحوي كل منها 100 دينار مثلاً ووزعتها على خمس وعشرين عائلة محتاجة فتكون بذلك قد فرّجت كربة من كربات هذه العائلات، ولم يسمع بك زيد أو عبيد.. فعظم أجر الصدقة مقترن بنيتك الخالصة وحجم مفعولها وأسلوب آدائها.. وليس بعدد من سمع عنها، اغتاظ وقال: وشن اللي جابك امال؟!، قلت ضاحكا: حتى لا تفوتني هالزردة.. ما هي رايحة، رايحة.. وجئت لأقول لك أن سر الصدقة أفضل من علانيتها إلا في حالات نادرة ليست هذه من ضمنها، ولا من ظروفها.. قال:

- ماذا تقصد بظروفها ؟ قلت :

- أغنياؤنا في السابق يملكون أحمال الشعير وبراسيم التمر وموزنات الزيت ولكنهم لا يملكون نقودا، والفقراء آنذاك لا يملكون في أغلب الأحيان كل مستلزمات إعداد الطعام، لذا يتوجه القادر إلي فكرة الطهي والتجهيز لتشمل أكبر عدد منهم من جهة، ويسد رمق هؤلاء في وجبة

يتـــناولونها وهـــم في أمس الحاجة إليها.. وهكذا نجدهم عملوا بالأصلح والأنسب في زمنهم وظروفهم.. أما أنت وأمـــثالك الآن فقـــد أنفق نقودا لاعداد الطعام وجلب كل مـــواده مـــن الأسواق وحاجة فقرائنا الآن تنوعت بتعدد مطالـــبهم الملحة، ومطالب أسرهم من شراء مستلزمات المـــدارس إلـــى الأدوية، والى تسديد ديونهم إلى السيدة المصونة شركة الكهرباء وأختها شركة البريد وابنة العمة شركة المياه والصرف الصحي والى ما هنالك من سيدات وسادة.. ثم أرجعته إلى مساوئ ما فعل.. فقلت :

- ثـــم ســـوف يحاسبك الله سبحانه وتعالى على بقايا الطعام الذي سترميه في القمامة وتلوث به البيئة وتسد به مواسير مـــنافع منـــزلك بالإضـــافة إلى هذه المشقة في الإعداد والمـــناولة لـــك وللذين أتعبتهم معك، زد على ذلك أنك نـــسيت عدداً من معارفك وما تخصك خاصة من القرمة، ويصير لك زي اللي بيطببه عماه..

قال:

- صار نوينا الأجر، حصلنا الحرام، قلت:

- خمـــم لـــروحك.. قطـــع حديثـــنا أحد المناضلين مخاطبا محاوري من بعيد:

- شوره ما فيش لحم زيادة؟، شن هالفطاسة؟!، قلت هامسا:

-جيب له من كبدة القعدان، بالك ماحضرش الذبح مسكين.. قال:

- سكين يقطع رقبته.. أول أمس شاري مكسيما بستين ألف دينار.. قلت معلقا:

- أيوه هديم اللي تجوز عليهم وإلا بلاش!!، عظّم الله أجرك في هالقرشين، ومعاش تعاودها بها لطريقة.. قال:

- أنا مازلت نديرها؟، امال هبلت؟!، ثم استدرك قائلا:

- للمرة الثانية أسألك، شن اللي جابك مادام هذا رأيك؟!، قلت:

-جئت لسببين، الأول، تلبية للدعوة وهى سنة مطلوبة، والثاني وهـــو الأهم، أن أستغل هذه المناسبة لأنبهك بعدم تكرارها، وما ينبغي فعله مرة أخرى في مثل هذه المواقف .

الباشا

كان شابا في الجيش العثماني له امتيازات خاصة بين أقرانه من الضباط نالها بفضل المنصب الكبير الذي يشغله والده يوسف باشا في الجيش، حيث وصل إلى منصب باشا آغا وأصبح قائدا لجميع فرسان الساحل والمنشية بطرابلس، وكان صهرا لأحد ابرز وجهاء وحكام الولاية يُلقب بابن الجن، فالتقت الطموحات بالإمكانيات، وسارت الأحداث كما ينبغي أن تكون له، وامتص رحيق نتاجها، وقد كادت أن تفلت لتكون وبالا ونكالا عليه، يدفع ثمنها حياته، ولكن شاءت الأقدار أن يؤسس أسرة مالكة حكمت ليبيا زهاء القرن وربع القرن.

انه أحمد باشا القرمانلي من أصل أناضولي تربّص للرياسة والحكم وأغتنم فرصة تناحر زعماء الولاية واشغل فكره في اللحظة المناسبة عندما استلم صحيفة "المتلمس" والتي تنص على قطع رأسه بأمر صادر من "محمود أبومويس" الوالي الجديد إلى شيخ غريان ليتخلص من هذا الشاب (الذي يكاد يبلغ

العـــشرين من عمره) ولتهدأ مشاعره بالاستقرار النهائي للحكم فـــي يديـــه وقـــد رأى فـــي التخلص منه، الخلاص والأمان له ولنظامه الجديد.

ذلـــك أن مـــصدر الخوف كان بسبب علاقة المصاهرة التـــي بـــين الـــشاب أحمد باشا وابن الجن المقتول على يد أبى مـــويس الـــذي ظن أن ضريبة المصاهرة ستكون انتقام الشاب مـــنه، فتظاهر بالمودة ووجد في إرساله بصحيفة "المتلمس" إلى شـــيخ غريان الخلاص من مواطن الشك ومكامن الخطر ولكن دهـــاء الـــشاب وريبـــته في الوالي جعلته المتلمس ولم تجعله طـــرفه.. فتح الرسالة وصحت ريبته وغيّر فيها وبدّل، فتحولت الرسالة من مودة صافية لشيخ غريان وأمر بالتخلص من حاملها إلـــى شـــتم وتهديد ووعيد لهذا الشيخ إذا لم ينصاع للسلطة في طـــرابلس ويخضع القبائل المجاورة للسلطان الجديد، وفي دور تمثيلـــي تظاهـــر الشاب بجهله لما في الرسالة وإن أعلن شكه وعـــدم ثقته في الوالي الجديد وأعلن استعداده للتعاون مع الذين يريدون الإصلاح والخير والأمان للبلاد فأثار حمية قبائل الجبل الغربـــي، ولـــم تجـــد القبائل من يكون مناسبا للسلطة غير هذا الشاب الذي تودد لها وتكفّل لها بالتدبير والتخطيط للسيطرة على

طرابلس وبذلك يكون الحاكم من صنعها وتكون قد أخذت بثأرها من الذي يتوعدها في رسالته.. وزحفت الجموع على طرابلس ولم يجد أبو مويس ملاذاً فشنق نفسه.

تمــت البيعة للشاب من القبائل وتخلّص من مناوئيه من الــضباط الأتراك المقيمين داخل طرابلس في حفلة عشاء أقامها لهــم في قصره في المنشية وأرسل على الفور إلى الباب العالي وفــدا محمــلا بالهدايا والأموال ومعلنا الولاء والطاعة ، ودبر مكائــد للتخلص من القادة الذين بعثهم الباب العالي لحكم البلاد، واضــطر الــباب العالــي إلى الرضوخ للأمر الواقع وأعترف بحكمه.. ولم يقف تطور الأحداث عند هذا الحد.. فقد اعترضت قــبائل أخرى على مسألة توليه السلطة، وهكذا دخلت البلاد في تطاحن اتسع نطاقه.. حسمه الشاب بحملات متتالية ضد أعدائه، وكــان لقناصــل بعض الدول دور في إشعال نار الفتنة خدمة لمصالح دولهم وقد عمل الباشا الجديد على استمالتهم وذلك على حــساب مــصالح البلاد بل منحهم حرية التصرّف في الجانبين الــسياسي والاقتــصادي ولندرة المحاصيل الزراعية ، ارتهنت سياســة الــدول لمشيئة دول مثل جنوة وفرنسا وهولندا وزادت الضرائب ، وتفشت الأمراض وانتشرت الفوضى ، وقلت موارد

الدولة الأخرى نتيجة لانحسار أعمال القرصنة البحرية. كل ذلك كـــان مـــردوده على أمن البلاد واستقرارها سيئا للغاية فبرزت مظاهـــر الرفض لهذا الوضع في اتجاه جديد أخذ الطابع الديني ســـمة لـــه تمثّل في ثورة تزعّمها "ابوقيلة" الذي منح نفسه لقب "المهـــدي المنتظر" وانطلق من تاجوراء "إلى الشرق من مدينة طرابلس" وانتهى به المطاف بالجبل الأخضر شرق ليبيا وحشد أنـــصاره مـــن مناطق عديدة مر بها وأسفرت هذه الحركة عن مـــواجهات حُـــسمت فـــي النهاية لصالح السلطة المركزية في طـــرابلس، ثم أخضع الباشا المتمردين في فزان (جنوب ليبيا) لـــسلطاته فـــي حملة جديدة، ثم أعد نفسه للتصدي لتمرد جديد ظهـــرت بـــوادره من الذين أنابهم في تاجوراء بمحاولة زحفهم على طرابلس ، وقد استغلوا غيابه عنها، عند قيامه بحملته ضد المهدي المزعوم في الشرق..

اســـتقرت الأمور وقويت قبضة الباشا في الداخل بعض الـــوقت ولكـــن علاقاته مع الدول الأوربية كانت على غير ما يـــرام نظـــرا لشدة محاولات هذه الدول وخاصة فرنسا وهولندا وانجلتـــرا فـــي التدخل في الشؤون الداخلية، وللحد من أعمال القرصـــنة البحـــرية التي كانت طرابلس تقوم بها ضد الملاحة

الأوربــية مــن جهة أخرى، والتي كانت مصدراً مهما للدخل فكانت العلاقات تتراوح بين الأزمة، والحرب والهدنة، والاتفاق والــنقض، مــارس خلالها باشا طرابلس جميع أشكال التعامل فتارة يتعهد وأخرى يراوغ وثالثة ينقض ورابعة يلتزم، يتحالف مع هذا ويعلن الحرب على ذاك ثم يتحول الحليف عدوا والعدو صــديقا، وفــي جمــيع الأحوال ، كانت الغاية مصالحه الذاتية وشهواته واستمرار نفوذه وتمكين الحكم له وتوطيده لأبنائه.. أما حاجة الناس وأمنهم ومصالح بلاده فكانت الضحية، واقتصادها وقودا فأثقل كاهل الشعب بالضرائب والغرامات وأبقاه سادرا في غياهب الجهل والفقر والمرض فكان التخلف سمة الولاية كبقية ولايات الدولة العثمانية الأخرى، في الوقت الذي تنمو في أوربا المجــاورة حــركة التطور الصناعي ويزدهر الاقتصاد وتُسن القوانين لحماية الموطن من الظلم والجور.

وتحقــيقاً لمــزيد من الشهوات والثروات أراد الباشا أن يضم إلى حريمه أرملة غريمه خليل بك الآرناؤوطي وقد كلُف بهــا عــشقاً وولها ولكن المرأة صدت جميع عروضه ووعوده ليقيــنها بأنه المحرض على قتل زوجها (مبعوث الباب العالي لتولــي حكــم الولاية) ووجدت في وليّ "مرابط" يدعى "سيدي

الـصيد" الملجـأ والمـلاذ من مضايقات الباشا العاشق، ولكن ضغوط الباشا على المرابط جعلته يقنع الأرملة بقبول العرض، فقد أدعى بأنه استقرأ النجوم فأنبأته بأن الأرملة ستصبح زوجة الباشا وأنها ستنجب له الأمراء، فرضخت لنصيحة الولي، وكان لموقـف هـذا الولـي المساند للباشا أثر في نفسه فكان تقديره للمـرابط، فقـد شـمله بالرعاية، وأغدق عليه الأموال والهدايا وداوم علـى زيارتـه التـي كانت وبالاً على الولي ولم تسعفه نجومه في استقراء ما وقع له بعد ذلك.

تكـررت زيـارة الباشا المغرم بالنساء ، للولي الصالح وفـي إحدى هذه الزيارات وقع نظره على ابنة الولي وهي في غفلـة المباغتة من الباشا، وكانت من أجمل نساء عصرها بل لعله تحرى رؤيتها لما سمع عن جمالها، وبالفعل كان وقع ذلك الجمـال على قلبه شديداً لدرجة أنه أصر على الدخول بها في نفس الليلة وأمر الولي بإتمام عملية الزواج، وعندما رفض الأب هـدده بالويل والثبور، عليه وعلى أسرته ثم أمر حراسه بتنفيذ رغبته وتحقيق مراده .. رضخ الولي وغابت عنه نجومه وألبس ابنـته أجمـل الثياب والحلي.. وأخرجتها الأسرة بين زغاريد الفرح المصطنع وأغانيه، ووضعتها في هودج من الكتان تغطية

الــزينات وحمّلــت على الجمل، وسلّمت لحرس الباشا.. دخل الولــي إلــى بيته ودموع الحزن المنهمرة تسبق تجلده وصبره واعــتكف فــي داره وقــد اتخــذ لنفسه مكاناً لا يسمعه زبانية العــربيد.. المــوكب المبجل ومظاهر الفرح والابتهاج تشع من خارجه بما يحمل من زينة وفخامة، ينظر العامة إليه في مساره بشيء عظيم من الإعجاب لما يشاهدون ولا يلمسون وينظرونه ملكــاً للآخرين ولا يأملون.. فالذيباج والحرير والحلي، وطواقم الحــرس والضباط تركب الخيل والجمال وهي تسير في خيلاء كمــا أصــحابها، وزهــرة الموكب في الداخل كتلة من الحزن والأسى يحفها اليأس وتعتصر قلبها مرارة الظلم، تحوّل الجمال في وجهها إلى بؤس وشحوب أطفأ بريق عينيها وانحنت هامتها في ذل وانكسار.. ادخلها التنابلة قصر أميرهم الذي ما لبث أن لحق بها ليطفئ سعير شهوته ولهيب غرائزه.

ولكنه لم يجد إلا جثة هامدة ممددة على أريكة وقد أصبح جــسدها جامــداً بارداً بعد أن سرت في أوصاله سكرة الموت، قلّبها يمنة ويسرة لعله يجد فيها بقية حياة أو لعله يصل إلى سبب مــا حدث، دون جدوى، فالموت حق وإن نساه الباشا في غمرة نــشوة الانتصار.. انتابه الرعب والاضطراب وتملّكته حالة من

الغــضب الشديد.. أمضى ليلته في حزن على ما ضاع من بين يديه وقد كاد أن يضمه بين أحضانه، وعند الفجر خرج في خيله ورجله واتجه إلى المرابط ليستجلى حقيقة ما حدث.

أجاب المرابط:

– أن ابنتي لديها ما يكفي من الآنفة ما جعلها تقدم على ما فعلت.

– إذن أنت المحرض لها.

– هي التي شربت السم ولم يفرض عليها أحد.

– لو لم تشعر بعدم رضاك على المصاهرة لما فكرت في ذلك.

– إن الرضا وعدمه لا يملكه الإنسان بمحض إرادته إنه من مكنونات القلب.

– إنك تستحق العقاب ... لا بد ، لابد . أن أنتقم.

– الفاعل هو الله ولا راد لقضائه.

– المحكوم عليه بالموت يسمحون له أن يطلب ما يريد.

– اطلب من الله أن يذهب بصرك الذي زاغ...

يقــول بعض المؤرخين أن بصر الباشا ذهب في نفس اللحظة التي تضرّع بها المرابط إلى الله، وذهب هذا الدعاء مثلاً

فــصار الــناس يطلقونه على هذا الانتقام الإلهي بعبارة "انتقام سيدي الصيد ".

ومن ذلك اليوم والباشا يتحسس في حله وترحاله الطريق بــيديه، وبعكاز بعد أن خارت قواه، وتدهورت صحته يوما بعد يــوم، وإن تظاهــر أمــام الآخرين أنه ينظر ويرى ما حوله ، وبمرور الوقت فقد مكانته ومركزه وسطوته وبدأ أبناؤه يسيّرون دفــة الحكم دون الرجوع إليه فحزّ ذلك في نفسه وفكر فيما آل إلــيه ووجد الشيطان له بالمرصاد يوسوس له المسلك المناسب والــنهاية الحتمية لمثل هذه السيرة.. نفذ صبر الباشا واستبد به القلــق مــن عــدم شفائه وتدهورت صحته فأقدم على الانتحار بــإطلاق النار على نفسه فاستقرت ثلاث رصاصات في أسفل بطــنه، وتولــى ابنه الأصغر مقاليد الحكم وقد عُرف عنه طيب المعــشر والبــشاشة، وألتف حوله الشعب لعله يجد العزاء فيما ضاع منه خلال العقود السابقة ولكن ليس بالطيبة أو اللهو يمُارس الحكم، كان ذلك في النصف الأول من القرن الثامن عشر..

الخرافــة

فــارع الطــول، عــريض المنكبــين، تمــيل عيناه إلى الاخــضرار، يلبس بدلة وطنية قديمة، ويضع على رأسه طاقية صنْــغُرت عن حجمها الطبيعي لتشبعها بقدر كبير من الأوساخ والعرق، فكانت لا تغطي سوى دائرة صغيرة من أعلى رأسه، يعــيش فــي حجرة صغيرة مسقوفة بجذوع النخيل، وجدرانها خلــيط غير منتظم من الطين والحجارة، يمنحه بعض الجيران من وجباتهم ما يسد بعض رمقه.. لا يحب العمل، ربما لأنه لا يملــك خبــرة فــي شئٍ.. كان بخيلا في حركته وبطيئا في مــشيته، فالجــسم مــثقل باللحوم والشحوم، والمفاصل خاملة بالكسل، تنقّل في العمل من مكان إلى آخر، مللا منه وإعراضا عنه، يمارس التنبلة فيدعى حسن التدبير تمويها، رغم ما يحمله ذاك التدبير من حيل البخل عن الجدية والمثابرة، ويبرر قعوده عن الرزق أحيانا بعدم فهم الآخرين له.. وكأن حاله لا ينبئ عن ضــحالة فهمــه وتفكيــره.. يستمع إلى أحاديث المجالس.. ولا

يـــتحدث إلاّ عن شيئين لا ثالث لهما: القمر والأرض.. أما بقية مـــساهمته فكانـــت مقتـــصرة علـــى تعبيرات وجهه العريض، بالعبوس أحيانا، والانفراج في أحيان أخر، أو بضحكة صاخبة، تلفـــت نظـــر الجالـــسين وتتيح له الدخول في موضوعي القمر والأرض.. كـــان يقـــول ويكـــرر فـــي كل مرة عن القمر تلك الأســـطورة الشائعة في مجتمعنا آنذاك، والتي فحواها أن بالقمر امراة عُلّقت من ثدييها لأنها مسحت دبر ابنها بقطعة خبز، وأن المدقـــق للنظـــر فـــي صفحة القمر يرى المرأة المصلوبة.. ثم يحـــاول أن يـــوجه سامعيه إلى صورة صخوره وظلاله مؤكدا صـــدق دعـــواه، والويل ثم الويل لك لو رفضت تلك الصورة الذهنـــية الراسخة في ذهنه منذ أمد بعيد لان نظرك (فالصو) وعقيدتك موضع شك.

ما سر هذا الرسوخ العجيب؟، بالتأكيد إنه من آثار التشكيل فـــي عجيـــنة طفولته، لقد أستقبل المعلومة ببراءة الأطفال وأصر علـــيها بعناد الجهل فيما بعد! لقد تصلّب النقش واستحالت إزالته.. هل عوّض قصوره عن حياة سوية على الأرض بخيالاته الساذجة علـــى سطع القمر؟، أكان الخيال مريحا لنفسيته المنهكة من هموم الواقع؟، هل كان هذا البديل قادرا على تخفيف كبته ومعاناته؟.

كل هذه التساؤلات مطروحة للنبش عن معاناته ومعرفة أسـبابها الباطنة.. النفس الإنسانية مخزون هائل من المكونات والانطباعات وسبل التعبير عنها فكريا وعمليا.. فهي من التعقيد بحـيث يـصعب عليـنا تحليل مخزونها إلى عوامله الأولية، ومعـرفة أي اللبنات كانت الأولى في بنائها، وما تأثير كل منها في غيرها وحجمه أو تأثرها بما عداها..

لا نملـك لـوحة مرسومة حسية نفك طلاسمها لذا ليس أمامـنا سـوى الافتراضات والاستنتاجات النظرية المبنية على ردات الفعـل لا على دوافع الفعل ذاتها إذ ردّات الفعل تختلف باختلاف الأفراد في الثقافة والظروف والعوامل الأخرى كالسن والحالة الاجتماعية والمعيشية والبيئية.

وعـن الأرض كان يسخر من القول أنها تدور.. وكان يتساءل في سخرية:

- لمـاذا لا أرى يوما باب حجرتي، وقد أزيحت من أمامه تلك النخلة اللعينة؟!، ثم يستطرد قائلا:

- إذا كانـت تدور فلماذا لا نصاب بالدوار؟ أو نسقط من شدة حركتها؟!.

يـــشرح لـــه الـــبعض الأسباب، ولكنه يتجاهل غامزا للآخـــرين عـــن المـــتحدث ويعيد على مسامعهم نفس الأسئلة وبأسلوبه الساخر أيضا.

حـــوّله الجهـــل إلـــى ساخر، وهو لا يعلم أن جهله كان موضعا لسخرية الآخرين!!.

تـــشعر أنـــه يـــريد أن يتلذذ بانتصاره ولو كان وهما، وبأسطورته ولو كانت كذبا!!، لو حضره كوبر نكس أو جاليليو لأقـــنعهما فتاب على يديه الأول، وقفل الآخر مرصده ونجا من العمى.. ولكنهما ماتا قبل أن يولد، ومات قبل أن يسمع بهما..

الشـــهم

يحـــتفظ الإنسان عادة بأحداث ووقائع تبقى محفورة في ذاكـــرته، ولا تـــبارح أعماق نفسه سواء كانت هذه الأحداث أو الوقائـــع ســـارة أو مؤلمة، وعمق تأثيرها في نفسه مرجعه إلى مـــدى تأثره بها إيجابا وسلبا.. وهذا العمق هو الذي أبقاها دون غيـــرها مـــن الأحداث حتى ولو كانت منذ أيام قليلة، بينما هي صـــمدت رغـــم مرور عقود من الزمن، خاصة إذا كانت تمثل جانـــباً إنسانياً رائعاً، يسمو فيه الخلق النبيل والتضحية من أجل القيم ومن أجل الإنسان.

لـــو نـــسيت فلن أنسى حادثة عشتها في صباي منذ ما يقـــارب من أربعة عقود من الزمن كان الأستاذ الفاضل بطلها الأول. فقد شبَّ حريق هائل في فرن تقليدي كان يعرف بكوشة ميلاد، ومما زاد من حجم الحريق هو امتلاء مخزن الفرن بمواد وقـــوده مـــن الأخـــشاب وأعواد الشجر والقش والورق.. كان ملاصـــقا لبيتنا وقد بدأت ألسنة اللهب تطال أطرافه، بل هددت

بقـــية المـــنازل والمحلات المجاورة.. في تلك الأثناء تصادف مـــرور الأســـتاذ الشهم في بدلته الأنيقة، وإذ به ينهمك برجولة وشجاعة في أعمال الإنقاذ لمساعدة الصبية وبعض المارة، وقد تعـــرّض لـــلأذى الشديد نتيجة هذا الإقدام، ولن أنسى (إذا ما نـــسيت) مدى حجم الخطر الذي داهمه أكثر من غيره من أجل أن يـــنقذ ما يمكن إنقاذه، لقد جازف بنفسه وضحّى ببدلته رغم حجـــم تكلفـــتها آنـــذاك مقارنة بدخله المتواضع كبقية الناس.. أضـــحى منظـــره مـــضحكا ولكن بقدر الغبطة التي يزهو بها الإنـــسان فخرا بإنسانيته، لقد اختلطت رائحة الحريق و العرق، بـــرائحة عطـــور مسائيته لتداعب أنفك رائحة الشهامة والنبل، وتخـــتلط مشاعر الحب والوفاء بصور التضحية والإيثار.. !!، وبمـــرور الـــزمن تأكدت هذه المواقف الرائعة، فلم تكن وليدة لحظـــة حماس أو بدافع عابر، بل هي طبيعة متأصلة في نفسه تجعلـــك تـــشعر بعظمة النبل الإنساني والخصال الحميدة التي يحملها الرجال لا أشباههم.. ولا أكتم القارئ الكريم عمق تأثري بهذه الشخصية الفذة، لقد كان المعلم الجاد والمثقف المبدع، فمن دروسه عرفنا مأساة القضية الجزائرية آنذاك، ومن دعوته لجمع التبـــرعات من أجلها تحمس الناس للتبرع بجلود الأضاحي في الأعـــياد، وبالأمـــوال العينـــية، والنقدية في سائر الأيام.. لقد

صدعت مكبرات الصوت المحمولة على السيارات بعباراته في شوارع المدينة تدعو الناس من قلب مفعم بالإيمان بعدالة قضيته، وقد بصّر أبناء مجتمعه بما يحاك لأمته من مؤامرات.. إنه بحق أحد مجاهدي الجزائر بالكلمة المؤثرة والعبارة القوية والتي صورت حجم الظلم الذي يعانيه شعبنا هناك، لقد كان أسلوبه مقنعا للأميين والمتعلمين معا.. كانت شخصيته ذات حضور مهيمن و محبوبة لتلاميذه (وكنت أحدهم) بما يضفي على دروسه وشروحه بمسحات من خفة الظل وسماحة النفس، دون أن تنال من هيبته وقدره في النفوس، لقد كان معلمي أحد أعلام الثقافة في بلدتي، وقد قدم لها من خلال مسيرته الطويلة ولمساته الرائعة في الإعلام والمسرح والكشافة والعمل التطوعي والتعليم ما يستوجب التقدير والإكبار.. لقد عمل من خلال أنشطته وهواياته على إثراء المد الثقافي بما يخدم قضايا أمته.. قلت: آمن بعدالة قضيته ودوره، فمنحه إيمانه طمأنينة النفس وعزتها، والرضا المفعم بالسكينة والهدوء.. وترك الآخرين يترفلون في قصور التبذل الخاوية من كل القيم والمثل، فشقى في نعيمه، ونعموا بشقائهم، غير آسف، ولكنهم سيأسفون.

وفي الختام، لا أملك إلا أن أتوجه إليه بالاعتذار عن

قـــصور قلمـــــي وعباراتي في أن تعطيه حقه كاملا.. أمده الله سبحانه بطول العمر والصحة الوافرة والحظ السعيد وبارك الله له في ذريته وقرة عينه إنه سميع مجيب.

العائـــد

أيـــن هو؟، وماذا حدث له؟، لا أحد يعلم يقينا.. الروايات متضاربة حول مكانه ومصيره.. الأم في لوعة وحزن، والأب في جلد قلّ نظيره، والآخرون يقلّبون الأمر على جميع الوجوه.. الإشـــاعات تمـــلأ المكان، والهمس يتناقل بين الآذان ، البعض يتظاهـــر بالاهتمام.. البعض أطلق لخياله العنان، كيف يهتم به الجميع؟، إذا لم يأت بغريب وعجيب الروايات المنسوجة بكلمات القـــيل والقال، وقد زُيّن له ذلك مادام الكلام مجانيا، والغموض يسمح للخيال بأن يرتع في حقول الكذب!! لا وازع من ضمير، ولا راد لـــه مـــن دلـــيل، يراكم الحزن على قلب الأم المفجوع ويـــضغط على أنفاس الأب الكتوم.. بوارق الأمل تنحسر يوماً بعـــد يوم، وهواجس الخوف تكبر وهمسات الجميع تتناهى لهما مشوشة مبتورة.

تـــتوزع النفوس في الطباع والمشاعر، البعض قلق على الشاب، والبعض قلق على أبويه.. وآخرون لا همّ لهم إلا مراقبة

الوجــوه وردات الفعل، ليحلل ويستنتج ما يحلو له، ويضع على المقصلة هذا أو ذاك ويشفى غليله بالنكاية والدسيسة.

هــذه طــباع كثير من البشر، ما يحزن هذا يفرح ذاك، ومــصائب أحــدهم فوائد لغيره.. نفوس صغيرة تافهة، ظلمت نفسها بقتل اللوم في ثناياها.

دُفــن الحزن في أعماق محبيه، وطوته نفوسهم المغلوبة علــى أمــرها، ومرت الأيام تهوّن عليهم المُصاب، وتبعد شبح المفقود عن ذاكرتهم، حسبوه من الأموات أو كادوا.

ومــضت الــسنون تنحت في وجوه القوم، بنت أجساداً، وهــدمت أخــرى، وباعدت الشقة بين الحدث والذاكرة، لم يعد يذكر أكثرهم المُصاب إلا في سياق أحاديث العجائب والطلاسم، أو عند الحديث عن ذكريات العجائز من أهل القرية.

فــي بلدة المتلوي اتخذ الشاب من لقب (الطرابلسي) اســما وسجل في كبانية بمنجم للفوسفات عاملاً، يضاعف مــن جهــده ليــنال أكبر أجر ممكن يعوضه عن سنوات الحرمان، رُغم امتلاك والده لأراض شاسعة وأعداد وفيرة مــن النخــيل والــزيتون، ولكن الأب متلف عربيد، ينام بالنهار يعاقر الخمر بالليل، ويسدد من ثمن ما يبيعه لأخيه

مــــن الميـــراث، ويرهن له الباقي في ذمة التسديد الذي لم يحدث قط.

في ذاكرة الطرابلسي كل ذلك، وإن نسى فلن ينسى يوم قدوم شيخ القبيلة وعمه يأمران أباه بالانسحاب من آخر موقع كان مرهونا وجــاء مــوعد تــسليمه.. ماذا بقى لأبيه وأمه، بل ماذا بقى له في قــريته، لقــد استوت بالنسبة إليه الأرض التي يقف عليها، وأرض الــواق الواق، كلها لأصحابها وهو عبارة عن ضيف غير مرغوب فــيه، لماذا لا يرحل.. لماذا يبقى بين أشجار النخيل والزيتون تلعن أبــاه، وتتكر عليه حقه في جنى خيراتها.. ثم ماذا أبقى له عمه، نعم كـــان لا تعجبه ممارسات أخيه، نعم كان دائم النهر له، ولكن الأمر تعــدى الأب لــيلحق بــالأم والابن، لماذا لا ينظر لهما العم بنظرة عطــف، هل اكتفى بالنصح للأب ليخلع عنه لوم الآخرين؟، وليوهم الجمــيع انه مضطر لشراء أملاك أخيه حتى لا تقع في يد الغريب.. فهــل هناك فرق بين أن يستحوذ هو ويمنع عنهم أو الغريب؟، هل أبقى لهم ولو موطأ قدم يقفون عليه؟.

تذكر كل ذلك وهو جالس بين أفراد أسرته في مهجره، كفــاه غــربة، ما ذنب أسرته أن تشرب من نفس الكأس؟ أن تنفصل عن كيانها وجذورها؟ هل يصبح الدم ماءً؟ هل يحق

لـــه أن يـــصنع أهـــلا بمحـــض إرادته واختياره؟ أم يخضع لنواميس الحياة؟، قد ينتقي المرء صديقه من بين الآلاف ممن عـــرف أو قد يختار وطناً أو ديناً.. ولكن ليس له أن يختار أصـــلاً أو فـــصلا، لـــذا وجب أن يلتزم كالآخرين من بنى جنسه.. هكذا فكّر وقدّر.

قرر العودة وكان ذلك في بداية الستينيات، حزم أمتعته، وجمـــع شمله، وتوجه إلى مسقط رأسه الذي لم يعد يعرف عنه شـــيئاً، تمامـــا كمـــا أن أبناء القرية لا يعرفون عنه شيئاً.. ألم يحـــسبونه في عداد الموتى؟ جاء للقرية ترقّب ردات الفعل في عـــيون أهلها توجّس خيفة من لحظة اللقاء.. كيف تكون؟ وماذا فعلـــت الـــسنون بأهـــل القرية؟ ماذا فعلت بعقولهم وبأجسامهم وبعلاقـــاتهم وبطباعهم؟ كيف يكون وقع الصدمة عليهم؟، الميت يخرج حياً !! والمنسي يقفز إلى ذاكرتهم بدون استئذان بشحمه ولحمـــه.. جـــاءهم وصور الأحداث المؤلمة لم تغادر ذاكرته، وكومة الأحزان لم تغادر قلبه..

لـــم يكـــن له بالقرية مأوي، عمد إلى بيت عمه.. طرق الباب، وأعاد الطرق مرات، لم يستجب أحد، مر بجواره صبي، يسأل:

- من تبي يا عمي الحاج ؟

- نبي عمك خليل يا وليدي ؟

- بالداخل..

- خيره ما فتحش الباب؟!!.

- معنداش حد، وما يقدرش يفتح بروحه.

هـــرولّ الـــصبي باتجـــاه البـــيت المجاور ليخبرهم عن الـــضيف، وبدأت الهواجس والخواطر تتزاحم على ذاكرته، ما الذي تغير؟، بل ما الذي لم يتغير؟.

أيـــن ابـــن عمه؟، أين زوجة عمه؟، هل يعقل أن يتركا الأب وحـــيداً؟، لابد أن أحداثاً جساماً قد مرت على العائلة في غيبـــته .. قطـــع حـــبل تفكيره قدوم الجار وبيده مفتاح البيت، استقبله .. وتوجه لفتح الباب، عرف الضيف شيئاً، وغابت عنه أشـــياء .. عـــرف أن عمـــه وحيد، ولكنه لم يعرف الظروف والملابـــسات وأسبابها، فتسارع الأحداث لم يعد يسمح للعقل أن يخمّن، ولا لمخيلته أن تركّب صوراً للهواجس، دخل مضطرباً .. شـــبح إنسان يرقد في ركن حجرة شبه مظلمة، هيكل عظمى مكـــسو بجلد متجعّد، وجه شاحب وعينان غائرتان ترقصان في

محجـــرهما بـــدون تركيز، فم مفضوض مغطى بشيب الشارب واللحـــية.. اندفـــع إليه يغمره بالأحضان والدموع.. والشبح في ذهول يسمع نحيبا وهمهمات ولا يعرف لها سراً.

أزاح بكفـــه شـــيب حاجبيه الكثيف عن عينيه، من الذي دخـــل عليه في وحدته ليعانق ويسكب الدموع؟، عرف الضيف غايته فأسرع قائلا:

- أنا ولد خوك يا عمي.

- ولد خوي!! ولد خوي مات من زمان!!

- لا يا عمي .. من قالك هالكلام!! أنا عبد الله.

- تعال يا وليدي، تعال يا عبوده .. والله قالوها: الحي يروّح.

تعانقـــا من جديد وابتلت لحاهما بدموع عيونهما . أسرة الضيف تحيطهم في ذهول وحزن مغمور بفرحة اللقاء.. الدم دم وإن أخمـــدت بعـــض الشوائب حرارته ولكن الغربة أعادت له قدراً من صفائه ومسحت ماران على القلوب من ضغائن.

أجلـــس الشبح ضيفه إلى جواره، واحتار كل منهما هل يـــسمع أو يحكـــي؟ تردد الضيف في السؤال عن أحواله، إنها أمامه واضحة جلية، ولكنه أراد أن يعرف كيف؟ ولماذا؟

مـــا جال في خاطر كل منهما استشعره الآخر، ولكنهما التزما بضرورات اللحظة، واستمرا في تبادل عبارات الترحيب وتكـــرارها .. الـــتفت الشبح إلى رفاق الضيف، أجلسهم حوله يحضن هذا ويقبّل ذاك وسط عبارات وهمهمات تدل على مدى فـــرحته بلقـــاء أسرته الجديدة، وتُنبئ عن نفس حطمتها الوحدة والعجـــز، ثـــم استـــشعرت في لحظة، الأمان والأمل، ووجدت ضـــالتها .. كيف لا؟، وقد حرم من الساعد والأنيس.. مات ابنه غرقاً .. وفقد زوجته بعد صراع مرير مع المرض والعجز، ولم يبق له سند سوى جاره الطيب، أيغنى الجار عن الأهل والأبناء؟.

المرء بين أهله وأبنائه يأمر وينهى ويحتج.. ومع غيرهم يأمـــل ويرجو ويذعن.. يأمر وينهى بحق صلة الرحم والعرف والدين.. ولكن مع الآخرين يرجو ويأمل بالمعروف المُسدى أو الأجـــر المدفوع.. هذه أسرته قد عادت ليسلّم لها مفاتيح البيت وكل ما يملك، تقيم معه، وتنشر بأنفاسها عبق المحبة، وبضجيج أبنائها ألحاناً تعلن للملأ أن الحياة أعمق غوراً، وأوسع أفقاً مما يتصور الكثيرون.

النجيب

في ستينيات القرن الماضي كان صبيا يافعا يتميَّز بحيوية ونشاط ويملك عقلا يتجاوز عمره الزمني بسنوات، وقدرا من الذكاء أوصله إلى مركز مرموق بين أقرانه، ينتظرون منه النصح والمشورة في ألعابهم، وتدبير شؤون تنظيمها.. ويتفوق عليهم في التحصيل، ويرجع إليه البعض لتوضيح ما التبس عليه من الدرس.. كان بحسن خلقه يقدرهم ويقدِّرونه، ويجلس بينهم وكأنه شيخ بين تلاميذه ومريديه.. يحمل هموم الحياة ولم تفرض عليه بعد مسؤولياتها علي عاتقه، وكأنه في سباق معها، حريص كل الحرص علي مواعيده في الجد و الهزل، ويحث الآخرين على ذلك.. يستمتع المشاهدون بمهارته العالية في اللعب، وترتفع معنويات من كان في فريقه، ويحسب له الطرف الآخر خطورة مهارته عليهم.. وفي السنة الأولى من المرحلة الثانوية استمر في عطائه المتميِّز.. وفي السنة الثانية قلبت له الحياة ظهر المجن (كما يقولون) فأصيب بمرض يعرفه علماء

الـــنفس بمرض انفصام الشخصية، ويرجعه البعض إلى أصابته بالعين.. دارت به أسرته أركان البلاد بحثا عن قالع للعيون في صـــفار البيض، والاحجبة والتمائم، وعن الأطباء في عياداتهم وأدويـــتهم، ولا سبيل.. رضخت الأسرة ورضخ زملاؤه للقدر المقدور، الجميع يتحدث عن المصاب ولا أحد يجد الشفاء.. إنه زهـــرة تـــذبل، وعقل يضمحل، وجسم يتآكل حزنا وتعبيرا عن شـــقائه.. تغيرًت أنماط حياته إلى شرود دائم وهوس وحركات عنيفة وعشوائية بيديه ورأسه.. أهمل مظهره، وساح في أحياء المديـــنة علـــي غيـــر ســـبيل.. عالم جديد يراه، وخيالات تعن كشخوص مؤذية بنظره.. هل يري شيئا غير ما نرى ؟ أم علم شيئا لا نعلمه ، فاعتبرناه مجنونا..؟ ولا ندري من منا المجنون، هل لأنه يري ما لم نستطع أن نراه؟!

هـــل خرق بصره ما كان محجبا عنا، فأراحنا و أزعجه؟ ثم من قال إنه منزعج؟ لم يشكو من أحد أو إلى أحد، لقد طوي في أعماق نفسه كل عالمه.. هل أستكتم ما يعلم خوفا؟ أم كتمه طواعـــية بخـــلا بـــه؟ يحاول البعض تذكيره بما كان فيشخص بصره في صاحبه برهة، ثم تنفرج أساريره دلالة علي معرفته لـــه.. ثـــم يلـــوذ بصمت رهيب، وكبت شديد، يربو به صدره،

تستـــشعره من خلال أنفاسه المضغوطة، ثم تنهمر دموعه ولا ندري هل هي تعبير عن مأساة يعيشها في داخله؟ أم غير ذلك؟ هل رأى في مظاهر الاهتمام بأنفسنا زيفاً ولا معنى له؟ هل سر ضيقه يكمن في نفسه المسجونة في جسده فعاقبه بالإهمال؟! أم كـــان ضـــيقه تعبيـــراً عن غضبه على المجتمع الذي عجز أن يخرجه مما فيه؟ من منا يسخر من الآخر؟ لا أحد يعلم بالضبط، ربمـــا كسخرية الطفل من الشيخ لقعوده عن اللعب أو كسخرية الـــشيخ من الطفل لكثرة حركاته وثرثرته.. أو قل كسخرية أهل العلـــم مـــن أهل المال أو كسخرية أهل المال من أهل العلم..لا نـــريد إجابة من أحد، فالحقيقة لا يملكها أحد ولا إجابة مقنعة.. فالـــذي نعلمـــه من حولنا لا يساوي إلا القليل، ورغم قلته فهو محكوم بطاقة محدودة للاكتشاف، فحواسنا خادعة وقاصرة أيضاً وبالتبعية فعقولنا تحت سطوتها فلا مفر من انخداعها، ويبقى الله ملاذا فحسابنا على قدر علمنا الضئيل، وعلى قدر ما علّمنا في شـــرعه ومـــا أراده مـــنا، فالحمد لله الذي كلفنا بما نستطيع لا أكثـــر.. لذا لا ينبغي لنا أن نجهد أنفسنا بما لا نعلم ونستطيع.. ونخوض فيما غيّبه عنا لحكمة يراها.. وإنما هي تساؤلات تفتح مجال العجز الإنساني على مصرعيه، وتعيد الإنسان إلى خانة إنـــه لاشـــيء قياسا بعظمة خالقه وملكوته، وسوف نستيقظ من

ســباتنا بالمــوت فيصبح بصرنا حينذاك حديداً ونعلم كل شيء على حقيقته.. ويكون الجواب الشافي.

فقــد أقــرانه صــديقاً عزيزاً عليهم، وتقلّصت روابطهم ولقــاءاتهم وكــأنهم لا يجتمعون من قبل إلا من أجله.. حاولوا بجهــدهم المتواضــع أن يخرجوه من عزلته عن عالمهم، وأن يعــيدوا مــا كان، ولكن خيبات الأمل كانت متلاحقة.. ازداد أســفهم عمقــاً، وعــاش فــي عالمه الجديد بعيداً عن واقعهم وأجبــرتهم الأيــام على الانفصال، وبمرور الزمن هان عليهم الأمــر ولكنه مازال في ذاكرتهم، يسترجعون مآثره كلما ذكروا طفولتهم وصباهم، وقد كانت مزيجاً من الفرح والحزن.

المخـــادع

يتميّز البعض بنظراته الثاقبة أحياناً بغض النظر عن دينه أو عـــرقه، ومن هؤلاء اليهودي شوعه.. لقد كان يداعب صبياً من أهل الحي يوماً، فسأله أحد المواطنين عن سر ذلك. فأجاب:

- إنه خليفتنا بينكم.. ضحك المواطن، واعتبر الإجابة مزحة عابرة، وانتهى أمرها بظرافتها تلك.. ولكن المصادفة وحدها نبهته إلـــى جديـــة ما قاله شوعه، إذ تكرر تواجد الصبي في دكانه وفي منـــزله رغم عدم وجود أي صلة بين أهل الصبي وأسرة شوعه.. فقـــد توّسم اليهودي في الصبي علامات التوافق مع مراده، إذ كان الـــصبي بطبعه نافراً من أقرانه ومن بني عمومته ولصيقاً بالأسرة الـــيهودية ذات الـــصبايا الأربع.. هل ما يحصل عليه من الحلوى والألعـــاب ما أغراه دون البقاء في بيت أسرته المعدم؟، أم الكلمات المعـــسولة التـــي يـــسمعها من اليهودي وأسرته دون والديه فعلت فعلها؟، أو أن الأمر مختلف تماماً؟، لا أحد يعلم شيئاً مؤكداً ...

بمرور الزمن أصبح الصبي غريباً عن مجتمعه.. ويحمل

أفكـــارًا جديـــدة، ويعامل الجميع بمكر ودهاء.. لا يتوانى عن الكـــذب والـــزيف، ولا يمل من كلمات الإطراء لمن يخافه أو يطمع فيه..

كبرت معه تلك الأفكار والسلوكيات، وأصبح ذا باع في اســـتخدامها، ولايجاريـــه فـــي ذلك أبناء مجتمعه البسطاء في علاقاتهم ومعاملاتهم.. قلب ظهر المجن لجيرانه ولأخيه الوحيد، ولم تجد معه الموعظة حديثاً، ومكانا، لقد أحاطت بسكناه المقابر والمـــساجد والـــزوايا، وســـمع من خلالها ورأى أحاديث الدين والعبـــر، ولكـــنه تعلّم منها فقط ما جعلته متقناً لدور الثعلب في ثياب الواعظين.. فيتحدث عن الشرفاء وكأنه منهم!!، وقد حاول أن يـــزج باسم أبيه في صفوفهم، وأنّى له ذلك، فالتاريخ مازال فـــي ذاكـــرة الجمـــيع.. لقد شابه شارون في ملامحه وهيئته، والخنزير في طبعه وغرائزه..

أتجه إليه رئيس البلدية يوماً بالسؤال:

- وكيف أخبار أهل ملتكم؟ وبني عمومتكم هناك؟ فأشار إلى رفيقه القادم معه مصححاً:

- أضـــنك تقـــصد بـــسؤالك هذا يا أستاذ.. أرتبك المسؤول وهمهم في نفسه (لا فرق شكلاً وموضوعاً):

- آسف اعتقدت أنك القسيس.. أجاب لا أنا الوسيط..

- في ماذا؟.

- أنه يرغب في بناء كنيسة.

- ليس لدينا مسيحيون والطليان لديهم ما يكفيهم..

تبرّع ذات مرة لمواطن أن يشهد لصالحه زوراً في قضية، وأعتبـــرها المواطن ثقة منه في صدق دعواه ، وبعد فترة وجيزة طلب منه أن يشهد له بمثلها، فتكون الحسبة واحدة بواحدة..

في أحد المواقف فشل في الحصول على مبتغاه، ونال منافـــسه غايته، فما كان منه إلا أن طعن في نفسه ومنافسه أمـــام الجهات المعنية !! تلاعب بالوثائق، وتظاهر بالطيبة ، وتاجر بكل شيء حتى بالعفة، وأعتبر الوسائل جميعاً مبررة ومباحة من أجل غاياته، ولو كانت الوسائل أكثر خساسة من الغايـــات ذاتهـــا .. ربما غابت عن نظرة شوعة الثاقبة تلك، نهاية المخادع الكارثية .. قلت ربما لأنني لا أعتقد أن شوعه وأمثاله لا يتوقعونها، ولكن في سبيل تحقيق مآربهم لا يهمهم مصير الأشخاص بل والأمم، فليس عليهم في الأميين سبيلاً، أما المجزوم بعدم علم شوعه، هو ما آل إليه ماله حين دقت

ساعة رحيله، فقد خانه فيما أستودعه إياه، فكان كالأفعى التي تربت في كم حاضنها، وما أن شعرت بالدفء والجوع حتى لدغته، أما الإنسان الأفعى، فقد احتضن المال ثم أكله، وأصبح دليلا إضافيا لمن يقول أن أخطر المخلوقات على الإنسان هو الإنسان نفسه..

الأفعى لم تلدغ إلا بعد جوعها.. أما المخادع فقد بلع كل ما وصلت إليه يداه دون ضرورة جوع أو غيره وإنما هي النفس الأمارة بالسوء.. ألم يعلّمه مربيه أن ليس عليهم في الأميين سبيلاً؟ ولكنه نسى أن يذكّره بأنه وبني عمومته من اليهود ليسوا من الأميين.. فكان من ضحاياه.. لقد أتخذ من القضاء سبيلا للانتقام والقرصنة بالتمويه وتزوير الحقائق واستجلاب شهود الزور كشأن أهل مربيه في مقاضاة شعوب العالم بقوانين معاداة السامية!!.

حاورت نفسي كثيرا فيما ينبغي عمله، هل أتحدث عن فظائع نهايته، رغم ما تحمله من عبارات سوف تكون قاسية وهابطة إلى أبعد حدود الانحطاط؟ ولكن القلم ينبغي إلا يخرج عن لغته الراقية رغم فوت الحقيقة الصادقة والمعبرة عما حدث فعلا.. لذا أثرت أن أتنمق في العبارة

وبالتالـــي اقصر عن وضع القارئ في صورة الواقع بكامل مآســيه وقسوته.. وأحفظ لأدب الحديث مكانته مهما كانت تفاصيل الحقيقة غائبة.

فليعذرنـــي الجمــيع فالعبــرة والموعظة ستكون ناقصة، والتاريخ بذلك ربما اضطر إلى أن يطوي في سجلاته درسا من دروس الحــياة.. وكمـــا طوي المخادع في خبايا نفسه كثيرا من أعماله الشائنة ولم يعرفها أحد أو يذكرها أحد أنفة من سفا سفها.

الـــدادة

الأقـــدار لا نملك لها ردا أو دفعا، و الادعاء بأعذار وتبريرات لا يجدي نفعاً، بل في المحظور، فقبولنا: لو عملنا كذا لكان كذا، نُدخل عمل الشيطان، كما قال عليه الصلاة و السلام والأقـــدار ليست شراً و إن ظننا في بعض مجرياتها كذلك، فعسى يكره المرء شيئاً و فيه كل الخير، وعسى يفرح بشيء و منه كل الشر.

خرجت تلعب مع أختها في الغابة المحيطة بكوخ الأسرة، رغـــم إلحاح أمها و تحذيرها للبنتين بعدم الابتعاد، بل والتشديد علـــيهن بعـــدم الامتـــثال لمغريات خالهن بمرافقته، كان الخال شـــريراً يتـــربص بهـــن، و بغيرهن من الأطفال لقد وجد في الأطفـــال تجارة رابحة، يغرهم بالحلوى ويؤنسهم بالمداعبة، ثم يدفعهم إلى تجار الرقيق القادمين من الساحلي الشمالي للقارة.

القدر غلب الحذر كما يقولون.. تسلل الخال إلى الغابة وتربص بهـــن بين الأشجار الكثيفة، لمحتاه، هربتا، اختفتا عن أنظاره، ادعى

الخال احتيالاً أنه رآهما، فظهرت الصغرى اعتقاداً منها أنه رآها حقاً، وخوفاً من عقابه، قبض مبلغ السحت من تاجر الرقيق الذي حملها مع من حمل من بشر و متاع إلى سوق النخاسة..

قادتهـــا الأقـــدار إلـــى الجغبوب، و قُدمت كجارية لأحد الأعيان و قد كان ضيفاً على أهل تلك الديار، بني بها وأصبحت الزوجة الثانية، ورجع بها إلى مدينته.. أنجب منها ولداً، و بدأت بمـــرور الزمن تتأقلم مع المجتمع الجديد، تعلمت العربية بلكنة أفـــريقية، و أصـــبحت واحـــدة من نساء ذلك المجتمع، بل من سيداته رغم لونها و أصلها، ذلك لأن زوجها من أعيان البلاد، و أغنـــيائها، خاصة و قد أصبحت أماً لولد ينتمي لهذا المجتمع ولتلك الأسرة.

كانت ذكية اجتماعيا و ظريفة أخلاقياً، زاد كل ذلك من رصـــيدها فـــي قلوب الجيران رجالاً و نساءً، وكلما تقدمت في الـــسن تـــزداد مكانتها رفعة، وحملت لقب الدادة بين كل أفراد القرية كباراً و صغاراً، تولّت إدارة الشؤون الاجتماعية للأسرة، فـــتحولت إلـــى (ســـفيرة) تمـــثل الأســـرة في أحزان و أفراح الآخرين.. و لا تخلو مناسبة في القرية إلاّ وهي أول المدعوين.

كبر أبناء زوجها و أبناؤهم، و أنشبت المنية أظفارها في

ابـــنها الـــشاب، فتحوّلت برعايتها إلى كل أفراد الأسرة، تزور بـــنات الأسرة في بيوتهن الجديدة، و ترعى شؤونهن و تحضر مناســباتهن مهـــا كانـــت صغيرة ، فلا يجوز في أعرافهن ألاّ تحـــضر سيدة الأسرة الكبيرة ، وتتصدر بآرائها و أوامرها ما ينبغـــي فعلـــه ومالا ينبغي، سهرت على مريضهم، و نصحت شارد هم، ودافعت عن مظلومهم، شاركتهم لقمة الشظف ولقمة الرغد دون تبرّم أو تبطّر، حمّلوها اسم العائلة تقديراً وعرفاناً، وحملته بأجلّ ما يكون حمل الأمانة و مسؤوليتها..

رأت أبـــناء العائلـــة و أهل القرية بعيون الأم و الجدة، فـــرأوها بعـــيون الأبناء و الحفدة الأبرار.. فالرابطة الإنسانية أقوى أحياناً من رابطة الدم ، و صدق من قال: رب أخ لم تلده أمـــك، وهنا نقول: رب أم لم تلدك أيضاً.. انتهج الأصهار نفس الـــنهج، و انـــتقل إلى أبنائهم، يحضرون بمر كوبهم لنقلها إلى بـــيوتهم، و يلتـــزمون بإرجاعها متى ما رغبت، رغم إلحاحهم باســـتمرار بقائهـــا بيـــنهم، و كانت حجتها الدائمة أن للآخرين نصيبهم أيضاً..

فـــي لحظـــات الصفاء يجلس حولها الأحفاد و يسألونها ببـــرأة الأطفال عن قصة حياتها، وكيف جاءت إلى هنا.. تعلو

سـحابة مـن الحزن على وجهها، ثم ترجع رأسها إلى الخلف لتعتصر ما بقي في ذاكرتها، و تصحب حديثها بنبرة تأوه وتقول بلكنتها الأفريقية المعهودة:

- أبى اسمه إدريس، لا أذكر غير اسمه الأول، أختي أكبر منـي و لا أعلم ماذا حدث لها بعد أن خطفني خالي، لا أعلـم اسـم موطن أسرتي.. كل ما أعلمه أنني من بلاد الأحباش هكذا كنت أسمعهم يقولون..

- و لكن يادادة، ألم يكن وضعك الآن أفضل من بقائك هنالك؟

- ربما و لكن كيف أُعوّض فقدي لأسرتي التي أنتمي إليها دماً و لحماً؟، كيف أصل عروقي التي قطعت ؟

- عـشت حياتـي محـرومة من أمي و أبي و أختي و أعمامـي وكـل أقاربي.. إنها حاجة إنسانية أكثر من كونها حاجة مادية.

- ألـم يكن خالك رجل سوء؟ وهل يمكن أن تحرصي على مثل هذا القريب؟

- صـحيح لقد آذاني، لقد اقتلعني من جذوري، و لكن هل كان دافعه غير الحاجة الملحة للقمة العيش؟، لقد كان شاباً

لا يعـــي خطــورة ما أقدم عليه، و لم يكن يعرف معنى الأبوة و الأمومة حين انتزعني من أسرتي.

- هل كنت تتمنين العيش هناك رغم كل الظروف؟، ورغم ما نلت اليوم من حبور و تكريم؟.

- الخير فيما اختاره الله، و الحمد لله على ما قدرّ، ولا نعلم الغيب حتى نحكم فيما هو أفضل..

أمــتد العمـــر بها طويلاً، و متعتّها الحياة بصحة جيدة، وكأنهـــا أرادت أن تكفـــرّ عـــن سالف أيامها.. لبست الحرير والـــذهب، و تصدّقت بمالها في حالات و مواقف كثيرة، وأدت فريضة الحج مع ابن زوجها ومع غيره من الأسر عدة مرات.

انتقلت إلى الرفيق الأعلى من فراش المرض الذي لم يمهلها غيـــر أسابيع، رأت فيه الاهتمام و الرعاية من كل المحيطين، وعـــرفت أن الحياة لا تعدم الوسيلة في إرضاء من أساءت إليه يوماً.. أحزن موتها كل من عرفها أو سمع عنها، و تناقل عنها أخـــبارها و مواقفها، مسترجعاً ذكريات سيرتها العطرة بينهم، وقـــد بـــنت لنفسها هالة من التقدير و الإجلال، منبعه الطريف وليس التالد، و تمثلت بقول الشاعر:

ليس الفتى من قال كان أبي ∴ و لكن الفتى من قال ها أنا

رغـــم أنهـــا لا تعرف الشاعر و لم تسمع بما قال!، لقد تعلمـــت قيم المجتمع، وخبرت تجارب الحياة بدون أقلام أو مدارس للدبلوماســـية وعلم الاجتماع و علم النفس، لم تفك حرفاً و لكنها فكت شفرة التعامل الإنساني، أحبت الناس فأحبوها.. لقد عاشت قـــرناً مـــن الزمن أو نحو ذلك، وعاصرت فيه مختلف أطوار الحياة في حرمانها و عطائها، فصبرت على شدائدها، وشاركت فـــي مسراتها، حملت في قلبها إيمان العجائز الذي طالما تمناه الفاروق رضي الله عنه، فسلّمت بقضاء الله و قدره، و استقبلت الحياة بطيب خاطر، و لسانها يلهج بالحمد و الثناء إلى أن غيبّها المـــرض عـــن الوعي.. و من يدري لعل قلبها ظل ذاكرا مع نبضاته إلى أن فارقت الحياة و أسلمت الروح.

الطـاهـي

الحـــرب ملعونة، والفقر ألعن، فإذا كان اليتم رديفاً لهما كانـــت المأســـاة قـــد بلغت ذروتها.. هذا حال الصبي الذي لم يـــتجاوز ســـن المراهقة، ولم يذق طعم الطفولة البريئة.. كيف يتـــسنى له ذلك ومجتمعه يتجرع نفس الكأس وإن كانت مرارته فـــي حلق الصبي أشد قسوة.. فطفولته التي لم تع أمناً وفرحاً، قسوة.. يتمها، قسوة.. رعبها من أهوال الحرب، قسوة. لا ملاذ ولا مـــأوى، والجمـــيع انشغل بهمه دون هم الآخرين.. أظلمت الدنيا في عينيه، وحاصرته بأنياب العوز من كل جانب.. خرج مـــن المدينة إلى ضواحيها يتنسم أخبار الراحلين.. ألقت رجلاه المتعبتان به تخلصا من حمله الهزيل تحت نخلة يستظل بها من قـــيظ الـــنهار في كرزاز، غاب عن الوعي أو قل غاب الوعي عـــنه، لا فـــرق.. مرت قافلة مهاجرة من لهيب البؤس.. حنى عليه سيدها.. سأله:

- لمن أنت يا وليدي؟ أجاب بشفتين شاحبتين وعينين راجيتين:

ـمـن اللـي هـارب من عيشتهم.. تجرع السيد الرد، وآثر عدم الاسترسال، حتى لا يسمع ما ينكّره بمزيد من الأسى والحزن.. ولكنه غيّر مجرى الحديث، فسأله: تبي تمشي معانا؟

أومـأ الـصبي برأسه موافقاً، أمر السيد اتباعه بالاعتناء بـه.. أخذ موقعه في الركب إلى المجهول.. لعل ذاك المجهول أفـضل مـن المعلوم، وهو كذلك على ما يبدو، إذ لم يعد له ما يخسر أو ما عليه يتحسّر .

عـندما يخـسر الإنـسان كل شيء، تضيّق عليه روح المغامـرة كـل الخيارات، ويقبل أن يقتلع من جذوره، أملا في زرعها بتربة أخرى، لعلها تجدد في أوصاله عرق الحياة.. انه يحاكـي النباتات الصحراوية الطائرة، ويحاكي أسراب الطيور والأسماك المهاجرة.. لم لا يكون مثلها؟.

الفقر هو الغربة أو قل الغربة هي الفقر.. لا فرق.. سـافر لعلـه يجد عوضا عما يفارقه، ونصب لعله يجد في نـصبه لذيـذ عيش، قد فاته.. قراره بالسفر وليد ظرف لا يملك له تغييرا، وان تجاوز ضغوط مشاعره وحبه تجاه بلده وبني عمومته ..

الركب يوغل في المجهول، لينقش في ذاكرة الصبي كل

جديـــد، لـــيحل محـــل القديم، فصار باهتا بمرور الأيام.. ولا تستدعيه الذاكرة إلا في لحظات الاسترخاء والمراجعة، فتحدث المقارنة بين ما كان وحاضر ..

أمضت القافلة أياماً وشهوراً، تقطع الفيافي وتنوخ بركبها من حين لآخر ليسترح حول معطن ماء أو موطىء كلأ، إلى أن حطـــت القافلـــة رحالهـــا على سواحل مطروح بمصر، وهناك وجـــدت نجـــوعا وبعـــض المباني المتناثرة حول ميناء صغير يـــستعمله الإنجليز مددا لقواتهم، في حربهم ضد دول المحور.. انتـــسب الصبي لأهل القافلة وأصبح بذكائه وحيويته شعلة من النـــشاط والهمة، وأحب الجميع، لقد كان رائعا في تعامله وفيما أوكـــل إليه من مهام، طموحاً في أمانيه.. ومع مرور الزمن بدأ يعي أسباب الحروب ودوافعها وغايات الأعداء منها، وسمع عن الحـــرب فـــي فلسطين، واستعداد العرب لخوضها، فتنادى مع رفاقـــه للتطوع، واعتقد كغيره أن الحرب لمة وفزعة وقتال ثم نصر مؤزر، وغاب عنه أن سماسرة الحرب ومؤامرات العدو أكبر من حماس متقد تواجهه مئات المصاعب والعراقيل والنيات الـــسيئة المبيتة.. حط به رحال الحماس في سوريا، وبوصوله انخـــرط فـــي تدريب سريع، ثم ألتحق بالجبهة.. ولكن الحرب

وضعت أوزارها، ونأ بكلكلها شعب فلسطين، تفرق جمع أقرانه وســاقته الأقــدار إلى إيران، ولا أحد يعلم كيف تم ذلك؟ أغلب الظـــن أن فورة النفط هناك تناهت إلى أسماعه، وأسالت لعابه، وألهــبت ثورة مصدق مشاعره.. انتهي به المطاف إلى حديقة قــصر لأحد الأعيان، يعتني بأشجارها وزهورها.. لعله اكتفى بقليل أجره مقابل أن يتنفس هواءً نقياً فواحاً يعوضه عن الهواء المشوب بغبار الحرب ودخان البارود، وبلقيمات تسد رمقه من بقايــا مــوائد الباشا مع أسرته وأصدقائه.. فهي على كل حال أفضل مما أكل طيلة حياته ما دامت لم تغمز له قناة أو تؤذي له فــؤادا.. يعد مع بقية الخدم الموائد ويتفنن في إرضاء ضيوف الباشا لينل الحظوة بمزيد من الرعاية والأجر، وقد حقق ذلك بما يعــده من بقايا اللحم المزهود فيه.. أعد لهم من رؤوس الأغنام وأمعائها وأرجلها، لحما متبلاً مصلياً، أغراهم بالمزيد وهم على شــبع، فــنال قلوبهم من خلال أمعائهم المبطرة، وأصبح معارا لــزملاء الباشــا كــضيف عامــل ليعد لهم ما اشتهته نفوسهم واستراحت إليه بطونهم ونال إعجابهم..

هؤلاء الأكابر أعجبهم ما يعد، لماذا لا يعده لغيرهم من العامة وقد علم أن هذه البواقي ترمى مع مخلفات المجازر ولم

يلق لهاأ بالا.. راودته الفكرة طويلاً، وعزم أمره على تنفيذها .. نـــال الامتنان من المسحوقين الذين لم تسعفهم جيوبهم لغيرها، وازداد الإقـــبال علـــيها بتـــناقل خبر مذاقها ورخص ثمنها بين البـــسطاء، فكانـــت لهم المن والسلوى لأكل اللحوم كغيرهم من الميـــسورين، وإن كانت رؤوسا وأرجلا وبطونا.. توسع نشاطه وكتم سر إعداد ما راق للناس وتزاحموا عليه، وأصبحت شهرته تملأ الأفاق وعلى كل الأفواه والأسماع.. تزوج، وأنجب البنين والبنات، شيد مثل ما لدى الباشا وأمثاله من قصور وعمارات.. لقد أطعمته الدنيا هناك، ونسته في بلاده.. ومنحت له الأمن في بلاد الفرس.. وقد خرج مفزوعا، مشرداً من وطنه.. هل أصابه شـــيء من كره.. لا، لا.. فنهى النفس عن ذلك، بلده مغصوب وشـــعبه يعانـــي مثله ، آنذاك ، فما الذي سيدعوه إلى الحقد أو الكـــراهية أذن؟، لا شيء.. إنما هي مقادير تجري في أعنتها، وزمـــن يقـــسم فيه العمر إلى يومين أحدهما له والآخر عليه ، وأيهما يسبق الآخر ، ذلك من حظه ولا دخل لاحد فيه.. عاوده الحنين إلى مسقط رأسه ولكن الصلة انقطعت.. قبل بقدره، وباح بخلجـــات صـــدره لأبنائه، يحكي لهم عن أهله، وما حاق بهم، وصـــف معانـــاتهم بكل تفاصيلها، وأعاد، وكأنه أراد المؤاساة والعزاء ولو تأخرت عقودا، ومن أبنائه حتى وان كانوا في غير

هـــذه الدنيا وقت مصابه.. استشعر أبناؤه عمق مأساته، وحملوا هـــمّ تنفيسها ، وترصدوا لكل ليبي ليسألونه بلكنة أعجمية: أنت مـــن مـــصراته؟، فإن أجاب بالنفي أكرموه في محلاتهم وكفى، وإن أجـــاب بـــنعم حملوه بترحاب وحبور إلى أبيهم لينكش له ذكـــريات الطفـــولة والـــصبا، ويعدد له المواقع والأسماء وهم يسمعون الحوار في نشوة فرح، إن أباهم وجد أهله وذويه، وقد ألقى بحمله الذي طالما أثقل كاهله وقد أرهقته الغربة والشوق.

انـــتقل الباشـــا إلى الرفيق الأعلى، وبدأ الأبناء يتقاسمون تـــركته، ووقفوا عند القصر، ماذا يُفعل به؟ لم يستطع أحدهم أن يـــشتريه، ويسدد حصص إخوته، فاتفقوا على بيعه، وتقاسم ثمنه نقـــدا.. عرف صاحبنا بذلك فأوعز لأحد أبنائه أن يشتريه وبأي ثمـــن، وتم له ذلك، وأصبح أبناء الباشا ضيوفا كراما في حدائقه، يأكلون ما أعد فيه من ولائم كان والدهم وضيوفه من روادها ...

العنيــد

هل نرى بعيوننا، أم نرى بقلوبنا؟، سؤال قد يثير كثيراً من الاستغراب، وهل العيون أداة ظاهرة للنظر فقط؟!.

مــا نجده في شخصيتنا هذه يطرح السؤال بصورة أكثر إلحاحــاً وجديـــة، ويدفـــع العقــل والفكر على العمل من أجل الحــصول علـــى إجابـــة شافية، ثم إن القرآن الكريم يشير إلى مجمــل المعني المراد، في قوله تعالي: ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ (46) الحج.

نعــرف جميعاً أن المعنى هنا يتجه نحو البصيرة، وسداد الــرأي، وحسن التدبير، وأيضاً يشير في تقديرنا إلي ما قصدنا إليه ولوكان من جانب ضمني، إذ نجد الإنسان في أحيان كثيرة شاخصاً ببصره في شئٍ ما، ومع ذلك لا يعيه ذهنه وعقله..

أصــيب بالعمى في طفولته المبكرة، وتحرك في الحياة العادية مع الناس كأحدهم.. لا يستعين بأحد في سيره من منزله إلـــى بــؤرة ازدحـــام الـــسوق، ويعوّل علي نفسه في معيشته

وتكالـــيفها، ويـــنهض بأعمـــال هي من صميم اختصاص أهل العيون، إذ لا يفيد فيها اللمس أو الشم كثيراً.. كان يجوب أزقة وشـــوارع المدينة المزدحمة بدراجتين واحدة علي يمينه والثانية على يساره، ومعلق بهما بعض الأجهزة الكهربائية، ويقف أمام محـــلات أصحاب الشأن ليعرض عليهم بضاعته، فيزيد هذا من ســـعرها، ويتوقف ذاك.. ليعرض الجديد من الأسعار على بقية المحـــلات، وهكذا.. ويحفظ عن ظهر قلب مميزات ومواصفات الدراجتـــين وما علق بهما، ويعددها للزبائن نقلاً عما سمعه من أصحابها من مواصفات ومميزات.

والاســـتغراب الـــذي استحوذ على الناس كافة يكمن في قدرتـــه على السير بمعداته تلك دون أن يصطدم بالأشياء الثابتة المعروفة.. ويقف أمام المحلات التي يعنيها دون أدنى انحراف في الاتجاه.

كان أشد ما يؤذيه وقوف سيارة في غير موضعها أو بضاعة فـــي غيـــر مكانها، فيصب جام غضبه على صاحبها، ولا يأبه بمن يعرقل حركة مروره الآمن، وحقه الطبيعي في التجول والعمل.

ذات يـــوم، ســـخر منه بعض جيرانه في صورة مزاح، ولكن يبدو أنه كان ثقيلاً علي نفسه، فخلق لديه شعوراً بالتحدي،

فأقــدم علـــى عبور جسر خشبي ضيق ممتد على حفرة بغمق أربعـــة أمتار.. حبس الحاضرون أنفاسهم، وبدأ عليهم الذهول، واستمر في مغامرته دون أن يعيرهم أدني اهتمام، واستغني عن أمـــرهم بالانتظار حتى يأتونه على أقل من المهل، ليعبروا به ذلك الحاجـــز الخطير، غير أن هؤلاء الخبثاء اتخذوها عادة ليروا من حـــين لآخر مغامرة جديدة تذهلهم ولكنها تسرهم في ذات الوقت، ويجد الأعمى في نفسه الرضا، ويشبع أنفته بالإطراء والإعجاب.

وفي جلسة من جلسات التسامر، تحدَّث الحاضرون عن قيادة السيارات، وفروق القيادة بين أنواعها، ومميزات كل نوع منها، وكان بينهم يستمع فغمزوه بسؤالهم السخيف حيث استشهد بـــه أحدهم ساخراً عن رأيه فيما يتحدثون.. ابتسم بطريقة فيها تكلّف واضح، وامتعاض شديد، وتنم عن حنق دفين لا يملك له إنكـــارا أو مداراة، دون أن يعقب على سخريتهم بشيء.. حمل بـــين أضلاعه ما أثاره الساخرون بسخفهم من مشاعر الإحباط في نفسه، ولكنه أصر على أن ينتقم لنفسه من مهازلهم..

وذات يـــوم اســـتدرج أحد أصدقائه ممن يملكون سيارة للخروج به في أرض فضاء، ثم أقسم عليه أن يمكّنه من قيادتها ولـــو لعـــشرات الأمـــتار.. فمـــا كان من صديقه إلاّ الرضوخ

والإذعـــان، وحقق له مطلبه، وبذلك أشفى غليله، وهدأت نفسه وعاد للساخرين يحدثهم عن انتصاره الذي عجز بعض أصحاب العيون عن تحقيقه.. عاش سنوات عمره بين الإحباط والأمل.. والـــسخرية ورد الفعـــل.. وحمـــل قلباً مفعماً بالإصرار على مـــواجهة اليأس في شتى أشكاله ومظاهره، والذي يعن له بين ســـاعات الـــنهار فـــي سعيه، وساعات الليل في سمره، وبين مـــصاعب العمل ،وسخريات الحمقى في مجالسهم، وهو شامخ عنيد من أجل الحصول على لقمة العيش عفيفة نظيفة، ودون أن يسألها من أحد.

تقـــدمت به السن وأرغمته على أن يهادن، ولكن الخبثاء لا يهادنون، فكان رده:

- مـــاذا فعلتم بعيونكم أيها الأغبياء؟ ماذا فعلتم دون أن أفعـــل مـــثلكم؟ لقـــد سكنت كما تسكنون، ولبست كما تلبسون، وأكلت ما تأكلون، كل ذلك بعرق جبيني، ولكن بعضكم نال ذلك بعـــرق وجهـــه الـــذي لا يخجـــل، ويقصد بذلك ألاعيب الغش والخداع التي يمارسها بعضهم في أعمالهم.

فيصاب الجميع بالوجوم، ويطأطئ بعضهم رأسه خجلاً، وبعضهم يكتم ضحكة بلهاء تدل على تفاهة صاحبها.

كـــان حماســـه القومـــي مـــتقداً ولم ينس جالسوه، وهم ينصتون إلى أخبار الأيام الأولي من حرب يونيو67، وقد سمع معهم عن سقوط العشرات من طائرات العدو، وهو يهتف بأعلى صـــوته "هذا جمال يا حسرة، ومازال يوريهم.." انتهت أحداث الحـــرب، وحملـــت في قلبه حزناً شديداً على نتائجها، وزادت من حجـــم تقديـــره لضحيتها الأولي، وزادت من غضبه وحقده على المتآمرين عليه.. وبوفاة زعيمه، كان الأولى بتعزيته قبل الآخرين.

كبَرت أسرته، وأنجب الأولاد والبنات، واسترسلت الأيام فـــي أحداثها وأخبارها وتنسج خيوطها وحبائلها، إلى أن جاءتنا بخبر وفاته.

رحمه الله، لقد صنع أحداثاً كانت مضرباً للأمثال، وعبرة لمن يعتبر.

أمــوتٌ وخراب بيوت ؟!

كان لخبر الوفاة وقع الصدمة، فالمرحوم ليس مسناً أو من المرضى الذين تتهيأ النفوس لخبر وفاتهم عادة.. شدوا الرحال إلى تلــك الــبلدة لتقديم واجب العزاء، كانوا ثلاثة تطوي بهم السيارة الأرض طيا لتلحقهم بموعد الجنازة.. توجهوا إلى المقبرة مباشرة، انــتظموا في طابور طويل.. تحيّن بعضهم الفرصة ليخرق النظام ويمـــارس بذلك ما يراه فهلوة وشطارة، إنه يرى في أجر الآخرة مــشروعاً (للبزنسة) بتوفير الوقت الذي طالما ضيّعه هدراً (إلا في مثل هذه المواقف).. هل كان ذلك هربا من ساعة الموعظة؟! أم كـــان تلهّقـــا على الوقت لارتكاب مزيد من الآثام؟!، ربما هذا وذاك معا.. مشروع للبزنسة إذ ربما لا يهمه من مات أو سيموت بـــل ليكـــسب علاقات جديدة (بالسمسرة) في مثل هذه المناسبات التـــي لا تـــتطلّب دعـــوة تبرّر مجيئه، فيبدو حزيناً ربما أكثر من أصـــحاب العـــزاء أنفـــسهم! ليسجلوا ذلك في ذاكرتهم، ويترقب الفرصة لجني ثمارها من مقاليد أمورهم!!.

انـــتقلوا إلـــى ســـرادق العـــزاء.. جلسوا قليلاً ثم همّوا بالانـــصراف.. أصر الحاج محمود (عم المتوفى) على البقاء حتـــى تـــناول العشاء، حاولوا كثيراً أن يتخلصواّ من المأزق، ولكـــنه أصـــر علـــى عناده.. السرادق في أرض فضاء رُفعت أروقته جلبا لنسائم عشية يوم صائف.. وعلى بعد عشرات من الأمتار، مجموعة من الصبية يتعافرون، حول مجموعة أخرى مـــن الشباب بسكاكينهم يذبحون ويسلخون ويقطعون أوصال الخـــراف وأكبادها.. ونار الحطب تصدع بألسنة لهيبها: هل مـــن مزيد من الأكباد واللحوم؟، جلس الحاج محمود بجوار أحدهم يحدثه عن ملابسات الوفاة وبقية أهل العزاء موزعين فـــي الـــسرادق يبحث عنهم المعزون بصعوبة بالغة، يعلون الـــرقاب والأكـــتاف من أجل الوصول إليهم! وهم بين متكئ ومـــستلق على ظهره، وكأن اجتماعهم في مناسبة عرس أو ختان.. أو أن بعضهم فقد هيكله العظمي فلم يستقم عوده!، لا يهمهـــم القادم من بعيد أو من قريب.. حضر شاب وقد روى وشبع قميصه من دم الخراف وفرثها، والذباب من حوله حفي بـــه.. أراد أن يهمس في أذن عمه.. كان لاهثاً، فخانته نبرة صوته، فأضحى مسموعاً.

- يا عمي راهم يبو خضرة.. أشاح الحاج بوجهه ويديه قائلا:

- شــوف عيال المرحوم، تعطيكم فلوس.. انصرف الشاب مــضطربا.. استدرك الحاج سماع جليسه للحديث فحاول تبرير موقفه، ألتفت إلّيه قائلاً:

- تصبّي معاهم، ويبوّك تعطيهم فلوس زيادة!.

سأله:

- شـــن عنده المرحوم من صغار؟ انتبه إلى مغزى سؤاله. ولكـــنه لم يستطع أن يناور في المساحة الزمنية الضيقة التي حشره فيها.

قال:

- ثـــلاث بنيات.. الكبيرة ناوي بيعطيها.. وأخذلها هالشويهات للفاتحة والأخرات صغيّرات، وعنده وليد عمره ثلاث سنين.

كتم المعزي غيظه ونهض من فوره قائلاً لرفيقيه:

- هـــيا يـــا جماعة يا دوب نوصلو.. وقد صاحبت قوله نظراته الحادة في وجهيهما حتى لا يسمح بمراجعتهما لموقفه المفاجئ.

وقــف الحــاج مرددا إلحاحه بالبقاء.. اعتذر وادعى أن موعداً مهما فاته تذكره ينبغي أن يلتزم به.

فـــي طـــريق العـــودة تـــبادل الصديقان الآخران نظرات الاســـتغراب.. فهـــم مغـــزى نظـــراتهما، فأوضـــح لهما ما آثار إستغرابهما.

قال:

- عمكـــم الحاج محمود ينطبق عليه المثل الليبي الشهير (الضرب للمحاميد والثني لغومه).. الحاج بيكمل على صغار خوه الموت بخراب البيوت!، تأوّه أحدهما وروى لهما القصة التالية:

- فـــي بلدة العجيلات تحديداً حضرت مناسبة عزاء، فقدموا لنا وجبة بدون لحم وقد تأسف من كنا في العزاء لتعزيته عن ذلك قائلاً:

- والله يـــا جماعة شيوخنا وكبارنا منعوا علينا تقديم اللحم في العزاء بسبب أن أحد شبابنا باع سيارته ليسدد بكامل ثمـــنها ما أنفقه بنو عمومته على عزاء والده، واعتبروا ذلـــك ظلما للشاب وأسرته وقرروا تعميم هذا المنع على

اللي عنده واللي ماعنداش حتى يرفع الحرج عن الجميع..
أعجبتهم الفكرة بقولهم:

- ياريـــت يديروها كبارنا ونتريّحوا من هذه العادة السيئة..

ثم تدخّل الآخر بقوله:

- أو يتولـــى الجيران متضافرين منسقين تقديم الوجبات من بيوتهم كما كان السلف الصالح في عهد الرسول وصحبه الكـــرام.. وبذلك نحل مشكلة المعزين القادمين من أماكن بعـــيدة، فتـــتوزع التكاليف، والمشقة أيضا على الجميع، ويتـــرك أهل العزاء فيما شغلهم من مصاب.. وينجو ما تركه فقيدهم من العبث.

حلـم الجبنـاء

جلـــس فـــي حجرته يتابع أحداث العالم، وقد تناول خلال مـــشاهداته جرعات مؤلمة من الأخبار السيئة التي تتحدث عن انفجـــارات هنا وهناك ،وقد ملأ عينيه بالدموع بمناظر الأشلاء والـــدمار، ثـــم آوى إلى فراشه ، يفكر بخيال خصب لا ينقصه شجاعة ومغامرة، ربما ناتجة عن دفـء مخدعه! كيف يمكن أن يقـــضى على هذا العدو؟ وفي لمح البصر، وجد نفسه في عالم آخـــر، فـــرأى فـــيما يرى النائم ، أنه يركب سيارة، ويعبر بها طـــريقا ملتوية ومليئة بغبار يحجب الرؤية وبالأوساخ والروائح النتنة وهى آثار لطريق شقته الشاحنات هربا من الذين وصفهم الآخرون بقطّاع الطرق، فاختار عندها أن يسلك طريقا صخريا ولكنه أنظف وأوضح، فإذا به يسلمه إلى أعداد كبيرة من الناس، وقـــد تخاصـــر رجـــالهم بالسكاكين والمناجل والسهام وتأبطوا الـــرماح بأســـنتها اللامعـــة وما أن لاحت أمامهم سيارته حتى أحاطـــوا بها إحاطة السوار بالمعصم، وبدأت الجلبة حوله ،فهم

منها بالإشارة الدالة على ضرورة التسليم ما بحوزته من مؤن.. ولكـــن زاده قلـــيل لا يكـــاد يكفيه ،عرفوا ذلك فتدخل زعيمهم ليرشده إلى المسلك المؤدي إلى غايته، ثم أصر على مرافقته في بعـــض الطريق ليبلغه مأمنه، وأثناء ذلك اعتذر له عما حدث، وبدأ يشرح له ظروفهم.. قال: لقد فضّل أصحاب الشاحنات أن يتجنبوا المرور من منطقتنا حتى لا يدفعون حقنا من حمولتهم، وآثروا بها عـــدوهم وعـــدونا!!، لأنه وعدهم بالمن والسلوى، وهي كمواعيد عرقوب لأخيه بيثرب، فأصبح حالهم كقول أبي الطبيب: أنا الغني وأموالي المواعيد!، لذا اضطررنا لعرقلتهم، رغم أنهم ليسوا هدفنا.

- ومن هدفكم إذن؟.

- العـــدو الأكبر القابع هناك.. ولكن الذي لا نفهمه هو لماذا يصر إخواننا على أن يمنعوننا حقنا؟، ولماذا كل هذا الذل والهوان أمام عدوهم وعدونا؟

- ربما لأنكم تبالغون في مطالبكم.

أبتسم بامتعاض قائلا:

-هـــل تساوي مطالبنا شيئا أمام ما ينهبه العدو منهم؟ ورغم فارق المطلبين!! إننا نطلب حقا والعدو يطلب بغيا.

- انهم يتهمونكم بالإرهاب.
- بـــصراحة لم يعد يهمنا بماذا يتهموننا.. الذي يهمنا كيف نقتص لنا ولهم من العدو الذي اتخذوه صديقا؟.
- بهذه الخناجر والرماح؟!!
- نعـــم، وبإيمانـــنا ،وقـــد أوجعناهم ضربا.. إنه الإرهابي الحقيقي.. وسبب كل المصائب.
- وما ذنب إخوانكم؟
- نـــريد أن نحرم عدونا من خضوعهم، ودون أن نترك أي فرصة لتدمير عدونا المشترك، ماذا نفعل إذا كان أخوتنا يوشـــون بنا لو تركونا لمواجهته، لما تعرضنا لهم، انهم أهلنا وبنو ملتنا.. عجبا كيف يستخدمون سيوفهم ضد من في قلوبهم؟.
- سوف أطرح عليهم رأيك.

ضحك بسخرية قائلا:

- منذ متى يملك الجبناء رأيا شجاعا؟.
- أن عدوهم يملك من السطوة والقوة مالا قبل لهم بها.

- هــل يمكن أن يقفوا على الحياد؟ وسوف يرون ماذا نفعل به حينئذ؟

- هل تستطيعون؟

- نعــم والدلــيل، أن القبيلة المجاورة استرجعت حق أمتها، وقهــرت عــدوها، بفــضل تــضحياتها، ووقوف بعض زعمائها على الحياد.

- ولكن ربما تطمعون في السلطة بعد ذلك؟

- القبــيلة المجــاورة لم تفكر في السلطة بل تركت لهم كل شــؤونها، وانــصب اهــتمامها على قهر عدوها.. وهذا الوضع يمكن أن يتكرر معنا ومع بقية القبائل.. نحن نريد أن نحــرر أمتنا، ولا يهمنا من يحكم عندئذ، لأنه سوف يكون حرا، وبالتالي سيخدم أمتنا بكامل إرادته ، وعطائه.

نزل المرشد من السيارة، وغاب عن الأنظار موغلا في الأفــق، ويعلــو بهامته، يصارع البروق والرعود التي خطفت الأبــصار وأصمت الآذان، أما هو فقد اعتقد أنه في مأمن مما يعانيه رفيقه، إنه جبان رعديد، لا يجرؤ حتى على الخروج من ســيارته.. ورغــم ذلك استيقظ مفزوعا، فإذا بإرسال التلفاز قد

انقطـــع، وصوت أزيزه يملأ أذنيه، وبول ابنه النائم بجواره قد تناثر على وجهه وصدره.. لقد ظنه في أول الأمر عرقا تفصّد من جبينه خجلا، ولكن الرائحة أعادته إلى المربع الأول.

علقم الحياة

عمل حمالاً في سوق المدينة، يجر عربته بحبال على أكتافه ينقل للتجار والزبائن بضائعهم، ويعود آخر النهار منهك القوى، يدخل داره المتداعية بفعل الزمن وقصر ذات اليد عن صيانتها.. يمدد رجليه ، وتسارع شريكته في الضنك والعوز إلى جلب الماء الدافئ لتدليك قدميه، وتحضر إليه وجبته الخالية من أية مقومات الغذاء والتعويض: حفنة زميتة مبللة بالماء أو رغيف من الشعير مبلل بحساء أو كوب من حليب نعجته مع حفنة من حشف التمر، ثم يستلقي علي ظهره يئن من رهق الحياة، وطول الشقاء.. لا يسمح له الشظف والإرهاق أن يفكر إلا في مشوار غده الكئيب.. وفي ليلة شتاء باردة وممطرة بالسيل المنهمر، جلس في ركن داره هربا من القاطر.. والخانب.. أوقد نارا لعلها تمنحه الدفء الذي فقده من ملابسه البالية وأرضية حجرته الرطبة.. جلست شريكة حياته بجواره.. منحهما بعض الدفء خيالا خصبا وهباه لمستقبل ابنهما الوحيد.. حاولت أن

تـــدخل الموضـــوع مـــن زاوية أخرى، فأخبرته عن فرح جارهم المبروك.. ثم تساءلت عن سر تمكنه من ذلك رغم قلة حيلته وفقره من قبل.. انتبه الزوج إلى مغزى سؤالها، ورد بقدر من اللامبالاة:

- أتعـــتقدي إن الغنـــي صـــعب؟، تراقـــصت عينا الزوجة استبشارا، وسألت:

- كيف؟، مدد رجليه، ودفع بطاقتيه إلى الأمام حتى حاجبيه، وقال:

- الـــنعجة ستلد، ومن خرافها نشتري النعاج وتلد.. فنصبح مـــن أصـــحاب الغنم، ومن خيراتها نزوّج ولدنا.. كانت الـــزوجة قـــد أعجـــبت بابنة جارهم الحاج امراجع، فقد أمعـــنت النظـــر فيها كثيرا، وأسرت في نفسها: لو كانت لابني.. وجدت الفرصة سانحة للبوح بأمنيتها.. قالت:

- إذن سنزوّج ولدنا من ابنة الحاج امراجع.. انتفض الزوج مذعـــورا، وصاح في وجهها: لن أزوجه إلا ًبابنة عمه.. فأشاحت بوجهها قائلة:

- إنهـــم لا يحبونـــنا ، انهـــم يضايقون ولدنا في كل شاردة وواردة ، ثـــم أنسيت ما فعلوه معك؟ هوّن الزوّج من كل

ذلــك واعتبــره أمــرا عابــرا لا ينبغي أن يكون مانعا للمــصاهرة، أصــرت الــزوجة على عنادها، وتصاعد الخلاف، فحسمه الزوج بالطلاق في لحظة غضب بعد أن عيرّت أخاه، ونعتته بشتى الأوصاف المشينة، بل هددت بتــرك الــدار إن أصر على رأيه.. دخل عليهما الابن، وجدهما في ذروة خصامهما، حاول فض نزاعهما، ولكنه تجاوز قدرته ومحاولاته.

انفــض المجلــس سريعا، ذهبت المرأة إلى بيت أهلها.. ظن الآهل في أول الآمر، أنها زيارة عادية.. ولكن طول بقائها، آثار في نفوسهم الشك.. سألوها عن السبب فأخبرتهم بتفاصيله.

علّق أبوها متحسرا:(سبّقتو القلية بالغزاز، وسميتوه قبل ما يولد!!) يا ابنتي، ليس من حقك أن تقدحي في أقاربه تقديرا لمــشاعره، بــل ينبغي عليك أن تصلحي بينهما، لا أن توغري صدره عليهم.. يا ابنتي، هل تقبلي أن يحرّض أحد، مهما كان، ابــنك علــيك أو علي والده مثلا؟، يا ابنتي، هو الأولى بتقدير مشاعره نحو أخيه منك.

امضى الحمال أيامه في حزن وكرب، أصر ألا يعود إلى أحلام اليقظة من جديد.. الفقراء لا يجوز لهم أن يحلموا،

ولا يجوز لهم أن يتجاوزا عتبة واقعهم قيد أنملة.. في أحلامهم خطر يهدد واقعهم.. وفي أمانيهم تكمن المآسي والمحن.. ينبغي لهم معالجة شؤون يومهم، أما ما بعده فله شان آخر، وتدبير آخر..

ماذا يقول لأصهاره؟ هل يقول أنه مخطئ لأنه تمنى أو حلم ؟ أو يصر على عناده؟ في الحالتين الأمر صعب.

ولكن هل الحلم محرم علي أمثاله ؟ ألم يكن تنفسيا عن واقعهم ، وتحررا للنفس بالآمال التي ترقبها.. العيش أضيق على أجسامهم.. أفلا يجوز للنفس أن تنطلق وتحلق في رحاب أوسع؟، كل ذلك لا يجدي نفعا. المهم الآن كيف يصلح ذات البين؟، كيف يعود بشريكة حياته؟ وإذا تحقق ذلك، فليترك لكل حادثة حديثها.

ذهب إلى شيخ القبيلة، تردد في طرح الموضوع، تمتم بكلمات لم يتبينها الشيخ.. ولكن الشيخ يعلم بما جرى، لقد وصلته الحادثة بكل تفاصيلها.. تناقلها الجميع همسا، فمنهم من اتخذها للسخرية، ومنهم من أحزنه ما جرى.. قطع الشيخ حيرته، وعرف من خلال ملامحه ندمه، ووعده خيرا..

حاور الشيخ أهل الزوجة طويلا، ثم اتفق معهم علي حضور ابنها لإرجاعها.

بعد سنتين التحق الابن بالعمل في ورشة للسيارات، وبمرور الزمن تراكمت خبرته في مجاله.. وواصل ليله بنهاره في عمل دؤوب.. تمكن من إصلاح دارهم، و أوقف أباه عن العمل، فلم تعد الأسرة في حاجة لشقائه، وحان موعد تطلعه للزواج.. وبدأ الحوار في شأنه من جديد.. اتفق الوالدان على أن يوكلا الأمر لابنهما قطعا للخلاف، لقد كان ما حدث لهما ماثلا في الأذهان، واختار الشاب ابنة صاحب الورشة.. و أقاموا عرسهم دون خصام أو فراق.

لم يتعود رب الأسرة على الخمول و الكسل، وبدأ يشعر بالملل، هل كان من الفراغ الذي دخل على حياته؟، أم كان شعورا بالإحباط إذ لم يعد المنفق على الأسرة؟، أم كان خجلا من انتظار ثمن الشاي الذي يشربه في دكان القرية؟، لعل كل ذلك ساهم في ضجره وتبرمه.. صارح ابنه برغبته في العمل.. رفض الابن بقوله:

- العصر تجاوز عربتك وحبالك

- التجار مازالوا يبيعون ويشترون.

- ولكنهم يحملون بضائعهم على السيارات، لا على الأكتاف والعربات.

- أتعلم القيادة ، واشتري سيارة.

- للسيارة أخطارها، عليك وعلي الناس، خاصة وأنت في هذا العمر.

- أتريدني أن أموت؟! لقد شببت علي العمل والكفاح، جسمي لن يقبل الرضوخ والاستكانة، وهذا الخمول يوهنه.. يا ولدي، لقد أصبحت غريبا في مجتمعي.

من يدخل السوق ويتعامل مع الناس يشعر بقيمته ودوره في الحياة، ويعيش على الأمل.. الأمل يا ولدي، وحده هو الذي يدفع بالنفس إلى الاستمرار.. التوقف عن العمل يسلم النفس إلى انتظار الموت.. هل فهمت ما اعني؟.

رضخ الابن ، ولكنه فكر في عمل آخر لأبيه.. فاقترح عليه أن يعمل في الفلاحة.. اشترى له مزرعة صغيرة وخرافا.

عاد له نبض الحياة من جديد، وكسب خرافا، وأصبح الحلم حقيقة، وبدأ يعيد علي مسامع جالسيه في انشراح قصة حلمه الذي أضناه يوما ما.. وتغيَّر علقم الحياة في أفواه عائلته إلى شهد.. وسددت الحياة دينها لصاحبه.

لقــاء الرجــال

فـــي ســـنة 1937 ضـــرب القحط البلاد، شحت الأرض بعطائهـــا، والـــبذور بحبوبها، تضوّر الناس جوعا، وهاموا في الـــبلاد يقتاتون عشبة من هنا وأخرى من هناك.. وعمد البعض إلى نجب النخيل يسد به بعض رمقه، ورهن الآخر أرضه مقابل كيس من طحين أو برسيم من تمر، على أمل أن تعوضه الأيام فـــي قادمهـــا بمـــا يـــسدد به رهنه.. من هؤلاء الناس شابان طمـــوحان، ســـمعا بـــشركات فرنسا تعمل في مناجم الفوسفات هناك.. في قفصة.. اتفقا على المغادرة.. صحيح لا يملكان ما يعينهما على السفر، ولكن الحاجة ملحة للخروج من هذا الوضع المأســـاوي.. انطلقا بقدمين حافيتين وبأسمال بالية رثة في اتجاه الغرب ، زادهم عشب الأرض، والتصميم على الهدف.. واصلا المـــسير المـــضني أياما وأسابيع حتى وصلا إلى حدود النفوذ الفرنـــسي فـــي بن قردان.. هناك لمحا خيمة ينبعث منها ضوء خافـــت ، اتجها إليه.. وجدا عائلة لأحد الرعاة.. خرج الراعي

مـــستقبلاً لهمـــا.. أدخلهمـــا خيمته، عرف من ملامحهما آثار الإرهـــاق من المسير، والشحوب من الجوع.. أخرج حفنة من طحـــين، عجنها، ودفنها في جمرات الحطب، وأخرج حفنة من حشف التمر.. أكلا (وليمتهما) بنهم، وكأنهما لم يأكلا مثل ذلك من قبل.. لقد كان الطعام لذيذا بقدر جوعهما.. نعم الطعام لذته بقدر الجوع لا بنوعه، فكم يعزف المبطر عن أصنافه المتعددة، فلـــم يعد يتذوق أطيبه، ولم يعد يشم أزكاه.. حاول أن يودعاه.. أصـــر علـــى بقائهما حتى الصباح، ليعوضا بقسط من الراحة اجـــسامهما المـــنهكة.. الـــتحفا بخـــيش وناما نومة الملوك في قـــصورهم بل اعمق من ذلك.. نعم طعم الراحة للمتعب أروع من طعم النوم للكسول المترف.. في الصباح سقاهما من حليب نعاجـــه وزوّدهمـــا ببعض الطحين والتمر، وخرج مودعا لهما حتـــى مسالك الطريق.. لم يحاول أن يتعرّف عليهما، ولم يقدما نفـــسيهما، فشيم العرب وعرفهم ألاّ يسأل المضيف ضيوفه قبل ثلاثـــة أيـــام.. ثم ماذا يجدي تعارفهم في مثل هذه الظروف.. واصـــلا المسير حتى قفصة في الجنوب التونسي.. انخرطا في العمـــل بالمـــناجم.. اتقـــنا عملهما، وتابعا تحصيلهما في قراءة القرآن في كتاتيب المدينة.. لقد كانا يحفظان قدرا لابأس به قبل ذلك.. وفي فترات الراحة يعرضان على بعضهما سور القرآن

الكـــريم.. حفظا القرآن.. واستعان بهما أهل المدينة على تعليم أبـــنائهم، في أوقات فراغهما من العمل.. نالا التقدير والاحترام مـــن أهـــل المدينة، تزوّجا من بناتهم.. ولإتقانهما وإخلاصهما تحـــولا إلـــى مـــشرفين على ورديات العمل بالمنجم، وقد أتقنا الفرنـــسية بـــتعاملهما مع مسؤولي الشركة.. بعد سنوات تحوّل أحـــدهم (محمد) إلى مدير لأحد مواقع الشركة، أما الآخر (ســـالم) فقد تحوّل إلى الأعمال الحرة، فأصبح من كبار تجار مواد البناء وتوسّع في نشاطه التجاري إلى قابس وصفا قس.

ذات يـــوم مـــن سنة 1972، وبينما سالم يتابع نشاطه بأحد محلاته في قابس، لمح رجلا بدويا يسأل أحد مستخدميه عن أسعار بعـــض المـــواد .. عرفه.. خرج إليه مهرولا، عانقه عناقا حارا، أخـــذه إلـــى داخل مكتبه.. ذهل البدوي وأستغرب ما يحدث، وقد عقـــدت الدهـــشة لـــسانه وألزمته الصمت بل جمدت تفكيره فيما يجرى.. عرف سالم استنكاره، وتجاوز عن ذلك بالقول:

- أشنوا يا عمي نسيت ضيوفك.. مازال البدوي مذهولا، ولم يفكر لحظتها إلا في حزامه وما يحمله من نقود.. سارع بوضع يديه على وسطه.. ضحك سالم وعلّق: ما تخافش، فلوســـك مازالـــت معاك.. استقرت نفس البدوي قليلا..

تفــرّس في وجه مضيفه، ولكنه مازال مستغربا.. تدّخل سالم قائلا:

- أقعــد.. أقعد، وتو تعرف.. أمر سالم مستخدميه بإحضار الــشاي.. ثم أسترسل في الحديث ويذكره بتلك الليلة التي مضى عليها أكثر من ثلاثة عقود.. أجهد البدوي فكره.. وأخيــرا تذكــر بعــض أحداثها، وقام معانقا مضيفه من جديد.. سالم: مش يقولوا فيها، الرجال تتلاقى والجبال ما تتلاقى.. أجاب البدوي:

- والله صحيح، ثم أستدرك قائلاً:

- أذكر أن شخصا آخر كان برفقتك تلك الليلة، أجاب سالم: صــحيح.. وتــو نــبلغه بيش يجي.. ذهب به إلى بيته.. أجــتمع ثلاثــتهم علــى موائد رد المعروف.. وتذاكروا تفاصيل تلك الليلة.. ثم سألاه عن حاجته.. قال:

- أفكــر فــي بناء دار، وأبحث لها عن مواد.. قالا بصوت واحد تقريبا: مش شغلك.

أمــر أحد المقاولين ببناء منزل متكامل يتجاوز طموح وآمال البدوي وأسرته، وكلفاه بتوفير كل مستلزماته المعيشية..

أعـــتذر الـــبدوي عن عدم قدرته على تسديد التكاليف، ولكنهما أصرا على ذلك وبدون مقابل.

ثم اقترحا عليه أن يدعماه بقطيع من الغنم ، قبل منهما، على أن يكونا شريكين.. وافقاه على مضض .. بعد سنتين قاما بزيارته في يوم ربيعي ووجدا السمن والحليب والجبن، ولكنهما أصـــر علـــى خبز الملة الذي أعده لهما في تلك الليلة.. لقد ظنا أنهما لم يأكلا ألذ منه.. فعلّق البدوي ضاحكا:

- الجـــوع يجلب اللذة في الأكل، والتعب يجلب اللذة في الـــراحة والنوم، ولا أظن أنكما ستجدون نفس الطعم الذي ما زال في حلوقكما منذ خمس وثلاثين سنة.

سقوط الأقنعة

في صباح يوم العيد نهض سالم باكرا ، أيقظ زوجته وأبناءه ، وبدأ بسلسلة من الأوامر والتوجيهات .. جهزي المربوعة .. ضعي أطباق الحلوى والمرطبات هنا، وأطباق الفواكه بالقرب من الصالون البني .. أدوات الشاي في الركن هناك .. أما أنت يا محمد ، فما عليك إلا تنظيف ساحة المدخل الرئيسي ... يا علي ، احضر باقات من ورد الحديقة وشغّل النافورة .. يا فاطمة جهّزي طواقم الماء والعصائر ..

تحول القصر المنيف إلى خلية نحل تعمل بجد ومثابرة ولكن بتعثر وارباك .. كان الجميع فيما مضى يأمر وينهي أما هذه المرة فالأمر مختلف .. لا بد من القيام بكل ذلك في غياب الخدم والحشم .. كان سالم يدفع مرتباتهم بعقود مع الإدارة التي يعمل بها .. ولكن إقالته أفسدت عليه البحبوحة التي كانت الأسرة في كنفها ..

لبس أبهى حلله ، وأنتظر الضيوف للتهنئة بالعيد ..

طال الانتظار ، وبدأ القلق يساوره .. ينظر إلى ساعته من وقت لأخر .. يبرّر تأخرهم تارة ، وتنتابه الظنون فيهم تارة أخـــرى .. لمـــاذا لم يحضر من كان السباق لإعداد الشاي للـــضيوف كالعـــادة ؟! لمـــاذا لم يحضر من ادعى صحبته ومحبته ؟! خرج إلى الشارع يستطلع الأمر .. مدَّ بصره إلى امـــتداد الـــشارع يسرة ويمنة .. تفرّس في وجوه المارة .. تتـــبع مسارها، لعلها تقصده .. ازداد القلق بحجم الانتظار وكبرت الهواجس بحجم الخيبة.

مرت سيارة مسرعة ، وقفت فجأة . نزل صاحبها للتهنئة .. رحب به ، دعاه للدخول .. اعتذر بانشغاله .مر آخر وقام بنفس التـــصرف ، مر ثالث ، تظاهر بعدم رؤيته حتى لا يكلف نفسه مـــشقة الوقوف ، ويرفع عن نفسه حرج الاستضافة التي لم يعد يـــرغبها .. كلهـــم كانـــوا من رواد ضيافته في العيد الفائت ، وتغص بهم مربوعته في كل مناسبة ، كبيرة أو صغيرة من أجل إظهار حبهم وولائهم .. لقد ظن يوما أنه كبير ، فخانته فراسته بقناعهم الزائف ، وحديثهم الكذوب ..

لـــم يعد للهاتف رنينه ، ولم يعد يقلقه في ساعات متأخرة بالـــليل ، بـــل حتـــى في ساعات النهار .. الصدمة على النفس

صاعقة ، لن يستطيع أن يصمد لو صدق .. لذا وجب عليه ألا يصدق .. فليبقى الأمل يحذوه .. الطقس غير ملائم ،ربما منع أحباءه من المجيء ، إذن عليه الانتظار بالداخل .. بعد ساعة ونصف، دخل عليه اثنان لم يسمعا بآخر الأخبار .. أثارت وحدته انتباههما .. كتما استغرابهما .. ولكن ملامحهما أخبرته بما يكتمان .. سارع يبرر الحالة .

قال :

- الجو ملبد بالغيوم ، والناس ملزمة لبيوتها خشية المطر..

علّق أحدهما :

- والله يا أستاذ ، مانقدروا نغيبوا عليك ، حتى ولو كان المطر سيلا .

أضاف الآخر :

- لمن بنجوا كان ماجيناكش يا أستاذ .

ازدادت حفاوته ، وقدم لهما كل ما لديه ، واستغرق في الحديث معهما لأول مرة .. كان لاينوبهما قبل ذلك إلا بعض الكلمات المبتورة والابتسامة الصفراء الباهتة لانشغاله بغيرهما..

طالـــت الجلـــسة ولم يحضر غيرهما .. بدأت الهواجس تغمـــر رؤوسهما .. ما الأمر ؟ ما الذي حدث ؟ تحيّنا الفرصة للتناجي تفسيرا للظرف الغريب ، ولكن وجوده بينهما ، منعهما من المناجاة والتفسير ، وأطال شوقهما المليء بالفضول لمعرفة ما جهلا ..

رن الهاتــف في جيب أحدهما .. سأل المتصل عن مكان المتصل به .

أجاب :

- في بيت الأستاذ سالم .

المتصل : شن ادير عنده .. الراجل قلبوله شنته من أول أمس .. وقدموا ملفه للنيابة .

أنهى الضيف المكالمة على عجل .. تغيّرت ملامح وجهه من انشراح وتودد إلى انقباض وتجهّم ، والتفت إلى المضيف مخاطبا:

- امتى بتخلصني ، الحكاية طوّلت ، وراجيتك واجد .. هذه مـــش معاملة ، عيب عليك المماطلة .. وأنا مضطر إلى تقديم الصك إلى النيابة ..

أصاب الوجوم والذهول الجالسين الآخرين :

- صـــاحب القصر ورفيقه . استنتج الأول فحوى المكالمة ، أما الثاني فذهب به الحدث بعيدا ، لقد ظن أن صاحبه قد جُن .. أيجرؤ على ذلك ، وهو في حاجة دائمة لخدماته؟! ألا يخـــشى علـــى مـــصالحه؟! تـــدخّل لتلطيف الموقف المشحون بالتوتر ... نهره صاحبه :

- اسكت أنت .. لا تتدخل في الموضوع . والأمر لا يعنيك.

أجاب بانفعال :

- أنت لا تقدّر الصحبة .. أنا ادفع لك قيمة الصك.

انفرجت أسارير المضيف ، وقبل بالحل .

رد الدائن بسرعة:

- احـــضر المبلغ الآن، أو حرر لي صكا به قبل أن نخرج من هنا ..

أخرج صكا . حرر القيمة . ودفع به إليه..

خرجا ، ركبا السيارة . وعند وصولهما لمنزل المتطوّع، صارحه رفيقه :

- صاحبك اللي سددت عنه الدين ، راح فيها ، وبيحطوه في دار خالته ..

أسقط في يده ، ولكنه أصر على عدم النزول من السيارة حتـــى يـــرجع إليه صكه .. تشاجرا .. انتهى بهما المطاف إلى مركـــز الـــشرطة .. دخلا في القيل والقال ، واللوم والملامة ، والحق والباطل ، والوفاء والخيانة .. وتصاعد النزاع إلى الدس والدسيـــسة ، والمكر والخديعة ،والكذب والفجور .. لقد سقطت الأقنعة ، ودفعا ثمن نفاقهما والعمل لغير الله ..

الفهرس

الموضوع	الصفحة
	59

الموضوع	الصفحة

تنفيذ الطباعة والتجهيزات الطباعية
دار قباء الحديثة
للطباعة والنشر والتوزيع - القاهرة
جمهورية مصر العربية
16 عمارات العبور - شارع صلاح سالم - مدينة نصر
تليفاكس 02/22621365 - محمول 0123140315
E-mail : modern_qubaa@hotmail.com



■ يقدّم مجلس الثقافة العام للقارئ الكريم مجموعةً من إصداراته الجديدة المتنوعة ، التي تتضمن أجناسًا أدبيةً وفنيةً ، تهدف إلى دعم الكتاب ونشر المعرفة وتنمية الذائقة الجمالية وإثراء الحركة الثقافية .. آمِلاً إسهامًا جادًا يضيف إلى الحراك الثقافي رصيدًا مميزًا وفضاءً جديدًا للمعرفة وللحياة.

مجلس الثقافة العام